

النشرة الأسبوعيةديسمبر 2007**النص البشري في سوائه وإضطرابه**

... قراءة من منظور تطوري

بروفيسور يحيى الرخاوي

**أسبوعيات ديسمبر 2007**المجلد 2، الجزء 4 - أسبوع 2 . ديسمبر 2007

إصدارات شبكة العلوم النفسية العربية



## النص البشري في سوائه وإضطرابه

... قراءة من منظور تطوري

بروفيسور يحيى الرخاوي

أسبوعيات ديسمبر 2007

الفهرس

- السبت 01-12-2007:
- 609 92- الوحدة والتعدد في التركيب البشرى (2)
- الأحد 02-12-2007:
- 621 93- عن الفصام (4)
- الإثنين 03-12-2007:
- 630 94- رائحة للذات، والحياة، والجسد، والأشياء
- الثلاثاء 04-12-2007:
- 637 95- العين الداخلية (والأنف الداخلية كذلك)
- الإربعاء 05-12-2007:
- 645 96- الأنف تدرك مثل العين أحياناً!!
- الخميس 06-12-2007:
- 679 97- قراءة في أحلام فترة النقاهة
- الجمعة 07-12-2007:
- 684 98- حوار / بريد الجمعة
- السبت 08-12-2007:
- 694 99- اعتذار، وحيرة حول المنهج
- الأحد 09-12-2007:
- 702 100- تعدد الكيانات وحركية الإبداع
- الإثنين 10-12-2007:
- 710 101- الطفل والتعدد والنمو والإبداع
- الثلاثاء 11-12-2007:
- 726 102- المخدرات العصرية والمفاتيح السرية
- الإربعاء 12-12-2007:
- 734 103- " أحجار كريمة وأشياء أخرى وسط كومة قش"
- الخميس 13-12-2007:
- 741 104- قبل قراءة الأحلام:
- الجمعة 14-12-2007:
- 753 105- حوار بريد الجمعة

- السبت 15-12-2007:
- 777 106- تشكيلات من: الحضارة والمدنية والحاجة إلى مراجعة
- الأحد 16-12-2007:
- 781 107- المستحيل .. والممكن!
- الإثنين 17-12-2007:
- 789 108- التطور الحيوى يتحدى المستحيل
- الثلاثاء 18-12-2007:
- 796 109- عن الدين العالمى الجديد
- الإربعاء 19-12-2007:
- 802 110- عيدية لكبارنا من عيال الأمريكان!!
- الخميس 20-12-2007:
- 807 111- نجيب محفوظ : قراءة في أحلام فترة النقامة
- الجمعة 21-12-2007:
- 811 112- حوار / بريد الجمعة
- السبت 22-12-2007:
- 833 113- مفاتيح بسيطة واختيار الحياة
- الأحد 23-12-2007:
- 842 114- حزمة من مفاتيح السر " الآخر"
- الإثنين 24-12-2007:
- 849 115- تهميش " الجسد" على الناحيتين
- الثلاثاء 25-12-2007:
- 859 116- أنواع العقول وتعدد مستويات الوعى
- الإربعاء 26-12-2007:
- 868 117- نجيب محفوظ : قراءة في أحلام فترة النقامة
- الخميس 27-12-2007:
- 874 118- قراءة النص: بين التفسير والاستلهاام
- الجمعة 28-12-2007:
- 878 119- حوار بريد الجمعة
- السبت 29-12-2007:
- 895 120- الوسواس القهرى في رحاب مولانا النفرى (1)
- الأحد 30-12-2007:
- 902 121- أهلا بالوسواس القهرى، لتَجَاوُزُهُ (2)
- الإثنين 31-12-2007:
- 910 122- حصاد الشهور الأربعة (122) يوميا، ونشرة)

السبت 08-12-2007

99-اعتذار، وجبيرة حول المنهج

### الخطوط العريضة للفرض الأساسى لنقد "العطر" اعتذار ضرورى

وعدت أمس أن تكون يومية اليوم هى امتداد حوار أمس، وذلك لأهمية ما ورد إلى فى آخر لحظة من رسالة ابى محمد، والضيف الذى افتقدناه هذا الأسبوع د. كريم شوقى، لكننى حين حضرت فجر اليوم بحثت عن الرسائل على مكنتى، فلم أجدها. الساعة الخامسة صباحاً، والسكرتير لن يحضر قبل الثامنة، أثناء البحث وجدت أوراقاً تتعلق ببداية نقدى رواية العطر، الأمر الذى أشرت إليه أمس، وقبل أمس، وكثيراً، قلت لنفسى فهى فرصة أن أبدأ فيما أجلته طويلاً.

بمجرد أن انتهيت من كتابة خواطرى حول المنهج الذى اقترحتة على نفسى لأقوم بنقد هذا العمل الرائع نقداً يستأهله وجدت أنها تصلح أن تظهر يومية الغد، وأن تزيح البريد المؤجل إلى يوم الجمعة القادم.

لكن رسالة محمد إبنى لم تستطع الانتظار فهربت من هذه الوصاية، وقفزت كاملةً لنتفتح بها باب "المحررون الضيوف"، فوافقتها وأنا خجلان من أن يكون الافتتاح "عائلياً" هكذا، ولكن ماذا أفعل ولم يتفضل علينا أى من المحررين القدامى، فى "الإنسان والتطور" بالمشاركة حتى الآن، مع أننى دعوتهم بالاسم منذ اليوميات الأولى ("عود على بدء، ثم نرى" يومية 1-9-2007)

وبافتتاح هذه الزاوية أكرر الدعوة، وبالاسم، للأصدقاء القدامى، ثم أعمم الدعوة لكل من يرى أننا نستأهل إسهامه، وبالذات كل من يريد أن يكتب تعليقا متكاملًا (مثل محمد إبنى الذى بدأنا به اليوم) أو كل من يرفض أن نقطع تعقيبته ونقلبه حواراً، تماماً مثلما كان الحال فى الإنسان والتطور (المجلة 1980 - 2002)

وفيما يلى دعوة جديدة إلى المحررين القدامى وبالاسم.

قائمة بالدعوة

كتاب مجلة الإنسان والتطور 1980-2002

زينب عزب	د. رفعت محفوظ	د. مجدى عرفة
د. عبد الحميد كايش	د. باهر محمد	د. عماد حمدى غز
عبد الحميد الكاشف	الزينفصل الشبيد	د. محمد هويدى
د. هناء سليمان	د. محمد حسيب	وفاء خليل
د. صلاح تخيمر	الدفراوى	د. سيد حفطى
عصمت دو استاشى	د. محمد السماحى	محمد جاد الرب
محمود لاشين	إبراهيم عادل حسن	د. أسامة بهاء الدين
د. محمد يحيى الرخاوى	د. وفاء الليثى	د. مها محمد كامل
د. مرقص عوض	أ. حافظ عزيز	د. باهر محمد الزين
زينب عزب	د. يسرية أمين	د. محمد شعلان
أسامة عبد الحليم	محمود حنفى	علاء إبراهيم
زكى	محمود لاشين	عبد المنعم عبد
محمد عبد السلام	د. عاطف طنطاوى	القادر
ولد دوح	د. مرقص عوض	د. رفعت لقوشة
وليد منير	فؤاد قنديل	د. خالد الدش
فؤاد سلامة	محمد عبد المطلب	د. حلمى شوقى المصرى
عباس الصهبي	أحمد المذثر عيسى	د. ماهر شفيق فريد.
أحمد زغلول الشيطى	د. سامى عبد القوى	محمود حنفى
د. عصام اللباد.	على	د. محمد المخزنجى
رضا عطية	د. عصام طنطاوى	السيد أحمد زرد
صلاح الدين محسن محمد.	فاطمة مدكور	أحمد زرور
د. أسامة عرفة	محمد محمود عثمان	حازم شحاتة
أ. مجدى حسنين	د. عادل مصطفى	عبد المنعم رمضان
د. عاطف عبد السلام	د. إبراهيم أبو عوف	اعتدال عثمان
أحمد عبد السلام	عباس الصهبي	فؤاد حجازى
بسيون	هالة جبر	سفاروق حسان
محمد شقرة	كوثر مصطفى	رضا عطية
هشام أحمد أحمد	شس الدين موسى	راوية حمودة
ماجد يوسف	عبد الوهاب الأسوانى	وليد منير
منتصر القفاش	خيري عبد الجواد.	صفية فرجانى
طارق النعمان	سير عبد الفتاح	د. إلهام عبد الحميد
سها النقاش	أحمد فضل شبلول	إيمان مرسال
إيمان مرسال	- حلمى سالم	د. حسام حشمت
على الشرقاوى	رجب الصاوى	د. عيد صالح
د. إيهاب الخراط ..	نعيم عطيه	عبد المنعم الباز
د. رمضان بسطاويسى	د. أحمد صبحى منصور	د. هانى يحيى
أ. إدوار الخراط	أ. ياسر عبد اللطيف	د. أحمد حسين
صالح عيد	أ. يوسف عزب	د. أحمد الفار
د. عادل مصطفى	د. أحمد تيمور	
نعيم صبرى	أ. فريد زهران	
	أيمن حامد عبد الشافى	

عن اقتراح منهج لنقد رواية العطر:

بداية وحيرة!

امتد المنهج الذى اهتديت إليه وأنا أقرأ - ناقداً - أصداء سيرة محفوظ إلى أن أغرائى أن أتبعه هو هو فى قراءتى لأحلام فترة النقاهة، الأمر الذى أوصل العمل فيه بمشقة رائعة متعبة ومتحدية .

خلاصة خطوات هذا المنهج يمكن إيجازها فيما يلى:

- يُكتب المتن كما هو فقرة فقرة،
- يُقرأ هذا الجزء نقدا بذاته لذاته
- ثم بعد الانتهاء من كل الفقرات، تجرى القراءة الطولية (الشاملة)

كان الإغراء باتباع هذا المنهج هو طبيعة العمل الأول (الأصداء) حيث وصلنى باعتباره مجموعة أصداء تتردد، وكأنها خواطر تقفز من مخزون الذاكرة لتُعاش فى وادى الإبداع وهى تتردد أصداءً بين جنبات الجبال المحيطة من الخيرات والرؤى والمشاعر، بهذه الصورة: يمكنك أن تستمع إلى نغم كل صدى يتردد منفرداً وكأنك تختبر كفاءة آلة عزفه، آميلاً أن تعزف اللحن كاملاً حين تنتهى من الاطمئنان لسلامة وجودة أداء كل آلة صدى على حدة،

حين رحت أطبق نفس المنهج فى قراءتى الأحلام وجدت صعوبات بلا حصر: فمن ناحية لقد عاشرت كاتبها وهى تولد، ثم لحت آثارها عليه وهى تيزغ، ثم قرأتها متقطعة وهى تنشر، ووصلنى منها ما قبلته وما رفضته، وهى لم تشذنى، - كما فعلت الأصداء- أبداً لقراءتها ناقداً، ومن ناحية أخرى مثلت لى كلمة "حلم" التباساً مزعجاً حتى رحت أنبهه نفسى طول الوقت أنه ليس حلماً بالمعنى الشائع عند الناس، مع أن الإبداع الحقيقى عندى ليس إلا حلماً فائقاً، كما أن الحلم الحقيقى عندى ليس إلا إبداع الشخصى العادى على مستويات مختلفة (**إبداع الشخص العادى، وإبداع المرأة !! يومية 29-9**)، ثم كانت ثمة صعوبة ثالثة هى أنني خشيت - ومازلت أخشى- أن يُقرأ النقد الذى أحاوله على أنه "تفسير للحلم"، وهذا من أكثر الأمور بعداً عن اهتمامى، وأحياناً عن احترامى، بما فى ذلك الكتاب الذى يقول عنه كل الناس، بما فى ذلك مؤلفه، أنه درة أعمال كاتبه سيجموند فرويد، وهو كتاب "تفسير الأحلام"، وقد أثبت موقفى بوضوح من تفسير الأحلام، وكذلك من طبيعة الحلم والشعر والإيقاع والإبداع فى عمل متكامل سابق (**الإيقاع الحيوى ونبض الإبداع**)

فماذا أغرائى بعد كل ذلك أن أجرب نفس المنهج فى قراءتى للعطر؟

أعتقد أن دافعى إلى ذلك هو أن كل فقرة من هذه الرواية النادرة كانت تمثل لى إثارة نقدية، ليست أقل إلهاماً من أحلام محفوظ، فعلاً كانت ولا تزال تصلنى تحدياً معرفياً يغرينى بمحاورتها قبولا، أو شحذاً للوعى، أو نقداً، أو إعادة تشكيل:

قلت: فلنبداً، ولنجرب بضعة صفحات، ثم نرى هل يصلح نفس المنهج لقراءة رواية العطر؟ وكيف؟ ولماذا؟

### تجربة محدودة (عينة)

حين كتبت عن حاسة الشم تلك اليوميات الثلاثية **يومية 3-12** (رائحة اللذات، والحياة، والجسد، والأشياء)، **يومية 4-12** (العين الداخلية) (والأنف الداخلية كذلك)، **يومية 5-12** (الأنف تدرك مثل العين أحياناً)، حضرتني رواية العطر، وبصراحة كانت هي الدافع الذي حفزني أن أكتب في موضوع الشم هكذا، قلت لعل الأوان قد آن لاستكمال نقد الرواية ونشره، وبدأت باقتطاف أول جزء من الرواية، بدون تعليق.

اليوم حين بدأت في قراءة لها ناقداً وثقت في الترجمة إلى العربية مرة أخرى وفرحت بها بلا تردد.

بمجرد أن كتبت صفتين، وأعدت قراءتهما، تيقنت أن هذا المنهج، هكذا، لا يصلح إلا أن يكون مسودة، فأكملت مع نفسي: "وما المانع أن استغل هذه اليومية في نشر مسودات ما أحاوله، في هذه السن وسط هذه الزحمة، ذلك لأنني لا أضمن، بل لعل على يقين أنني لن أتمكن من تبييض كل مسوداتي. فليتحملني القارئ، أو يرشدني، أو يحول دون استمراري، أو يأذن الله في أمري.

### العنوان

#### العطر<sup>[11]</sup>

#### قصة قاتل

هذه رواية كتبت سنة عام 1985 ونشرت سنة 1997 وترجمت إلى (سنة وأربعون لغة)، تقيمي للترجمة في ذاتها، دون الرجوع للأصل بالألمانية طبعاً (مع المقارنة المحدودة بالنسخة الإنجليزية)، بقدر اجتهادي أنها ممتازة حتى خيل إلى (مثل ترجمة سامي الدروبي لروايات ديستوفسكي)، **أنها إعادة إبداع النص بلغة أخرى** (أنظر بعد).

من البداية حتى النهاية تحفظت على العنوان الفرعي "قصة قاتل" فأنا لم أستقبل غرينوى أبداً باعتباره قاتلاً بالمعنى الإجرامي، وذلك برغم عدد القتلى، ونوع القتل، وبشاعة طريقة القتل، فإنه لم يصلني أن هذه الصفة بالذات "قاتل" هي التي تميزه،

غرينوى كان إلهاً زائفاً،  
 نيزكا ساقطاً إلى أعلى  
 كان جسماً غريباً بانساً،  
 كان متفرداً غيباً،  
 كان قرادة جافة مُنْقَضَه،  
 وكان - أيضاً - قاتلاً لأنه كان كل هذا،

فلماذا يفرض علينا المؤلف هذا العنوان الفرعي هكذا



على الغلاف حتى لو وصله هو شخصياً أنها "قصة قاتل".

أول فقرة ص (5)

في القرن الثامن عشر عاش في فرنسا رجل ينتمي إلى أكثر كائنات تلك الحقبة نبوغاً وشناعة، وهي حقبة لم تكن لتفتقر إلى أمثال هذه الكائنات، وقصة هذا الرجل هي ما سنرويها هنا. كان اسمه جان باتيست غرنوي **Jean-Baptiste Grenuille**. وإذا كان اسمه اليوم قد طواه النسيان على نقب نوابغ أوغاد آخرين، مثل دوساد، سان جوست، فوشيه أو بونابرت وغيرهم، فذلك بالتأكيد ليس نتيجة أن غرنوي بمقارنته مع هؤلاء الرجال الموهوبين الأكثر شهرة، يقل عنهم تعالياً واحتقاراً للبشر ولا أخلاقية، وباختصار كفراً.

بعد مقارنة متواضعة لهذه الفقرة الأولى التي هي موضوع هذه اليومية، بالترجمة الإنجليزية (انظر نهاية اليومية) قررت فعلاً أن اعتبر المتن العربي الذي بين يدي بمثابة نص مُبدعٍ مستقل، وألا أرجع إلى الترجمة الإنجليزية إلا مضطراً، أما الأصل الألماني فادعو الله ألا اضطر أن استشيريه إلا عندما يحتل منى السياق تماماً، فأجدني محتاجاً جداً إلى الأصل الألماني، ربما يدعم أو ينفي فرضاً من فروض الصعوبة.

تعبير "الكائنات" هنا وصلني بدلالة خاصة، الكاتب لم يقل رجل ينتمي إلى أكثر الناس أو الأشخاص، فهو يذكرنا مباشرة ومن البداية أننا لسنا إلا كائنات، مجرد أحياء، وأن الإنسان هو أحد هذه الأحياء، أحد هذه الكائنات.

ثم إن الكاتب راح يجد صفات هؤلاء النوابغ الأوغاد، منهم غرينوي بكل مما يلي: (1) التعالي (2) واحتقار البشر (3) واللاأخلاقية،

نبدأ بمسألة اللاأخلاقية حيث أن موضوع تعريف ما هو أخلاقي هو إشكال في ذاته (يمكن الرجوع إلى يومية 10-15 "من ملك القيم والأخلاق في مصر الآن) وبالتالي، فإن صفة اللاأخلاقية تصبح أضعف الصفات دلالة في وصف هذا الكائن، (وأمثاله الأكثر شهرة وسلطة وقسوة وقتلاً)، أما التعالي واحتقار البشر، وهما شديداً الاتصال سبباً ونتيجة بالتبادل، فلهما دلالة مهمة في فهم موقف غرينوي لاحقاً، موقفه من التنازل عن الحب لصالح ما تصوره الحياة. الاحتقار والتعالي، نفى حاسم. وربما مطلق لأي حب (ربما من أي نوع)، وهذا ما أرجو أن يتضح خلال مراحل النقد المختلفة.

أما اقتران كل هذه الصفات بل إيجازها في كلمة واحدة وهي "الكفر" فهذا ما قد يدور حوله أغلب النقد المقدم هنا، ربما ربطاً بدراسي عن الإخوة كارمازوف واستحالة الاخاد (بيولوجيا) (تبادل الأفعنة "حركية العلاقات البشرية جدلاً وامتداداً في الإخوة كارمازوف")، وربما هي فرصة لتقديم معنى آخر للكفر والإيمان.

أما مسألة ربط الكفر، بالنبوغ بالوغندة فهذا يحتاج إلى

وقففة أمام كلمة **نبوغ**، نحن نعلى من قيمة النبوغ بشكل متواتر دون النظر فيها بما يكفى، هل افترت هنا كلمة نبوغ بالوعدنة كنعقيضين أم كمترادفين؟ **النايغفة يمكن أن يكون وغداً، لكن هل الودغد يمكن أن يكون نايغفة؟ أم أهما لفظان متلازمان، ولو واتتنا الشجاعة ربما قلنا "إن كل نايغفة وغداً"، أو على الأقل هو "مشروع وغداً" بشكل أو بآخر، وإذا كان الكاتب قد اختار دوساد وسان جوست، وفوشيه، ويونابرت، كأمثلة فقد خطر ببالي نيئتسه، وأينشتاين، مع أننى أحبهما جدا (أتساءل الآن: هل استطعت أن أحب غرينوى أبدأ، وأؤجل الإجابة حتى نهاية الدراسة)**

إلتزمت بالألفاظ العربية دون ما يقابلها بالإنجليزية.

### التحدى المزج:

آن الآوان أن نناقش هنا نفس الفقرة بالانجليزية [2]2

In eighteenth-century France there lived a man who was one of the most gifted and abominable personages in an era that knew no lack of gifted an abominable personages. His story will be told here. His name was Jean-Baptiste Grenouille, and if his name - in contrast to the names of other gifted abominations, de Sade's, for instance, or Saint-just's, Fouche's, Bonaparte's, etc. - has been forgotten today, it is certainly not because Grenouille fell short of those more famous blackguards when it came to arrogance, misanthropy, immorality, or , more succinctly, wickedness,

بصراحة عجزت عن أن أجد الألفاظ المتقابلة بين اللغتين.

- بدأت باللغة العربية وبلغظ "وغداً" فوجدته (مع الإيجاز الشديد): **وَعْدُ** (بضم العين "الأساس"): كان ردلاً دنيئاً صغير العقل (الوسيط)

- ووعد (أساس البلاغة/الزمخشرى): دنئ، وأصله: "**سهم لا حظ له**." (فهئتها، لم يُصَبْ هدفه، لاحظ كيف سيتطابق ذلك مع غرينوى)

ثم رحوت قبل أن أقرأ النص الإنجليزي لأجد أقرب لفظين إلى المعنى هما Villain & Scounder وفضلت الأخير.

لكنتى حين قرأت النص المترجم وجدت أنه ترجمة إلى abominable فرحت أستشير المعاجم الإنجليزية فلم تسعفنى بما يفسر الاختلاف.

وبما أنى أكاد أزعم أنى أعرف غرينوى معرفة كافية، فقد وجدت الوصف باللسان العربى هو الأقرب إليه.

- أما لفظ **نايغفة**، فقد جاء ما يقابله بالانجليزية Gifted، وهو الذى يعنى عندى "موهوب"، والنبوغ عندى (وربما عند الكثيرين) ليس مرادفاً للهبة.

<sup>[1]</sup> - تأليف: باتريك زوسكيند -

ترجمة: نبيل الحفار - الناشر: دار المدى عام 2003

- أما ما يقابل لفظ "الكائنات" الذي اعتمدت عليه لأرجع بغيرنى - فيما بعد - إلى بدائيته المتأهية، فلم أعثر على ما يقابله في النص الإنجليزي إلا لفظ Personage!!

- وأخيراً، فإن لفظ الكفر، الذي يمكن ان تدور عليه فكرتى لفروضى الحورية يقابله في الإنجليزية لفظ Wickedness وهل هذا الاختلاف يحتاج إلى تعليق؟

بصراحة انزعجت انزعاجا بالغاً وطرحت كل ذلك جانباً وقلت:

إن ما وصلنى من النسخة بالعربية، سوف يكون منبعى ومصبى، حتى لو كان مؤلف النص الذى أقرأه ناقداً هو د. نبيل الخفار وليس باتريك زوسكنيد.

الخطوط العامة لفرض الدراسة (مؤقتاً):

- غرينوى - بطل الرواية - لم يوجد أبداً، لم يعترف أحد بوجوده، منذ الحمل حتى النهاية الغامضة، فراح غرينوى منذ اختار الحياة - بقاءً - حتى لو كان نيزكا منفصلاً، اختارها: بديلاً عن الحب، راح يخلق نفسه بنفسه لنفسه.
- غرينوى خلق له روحاً (رائحة) متفردة، شكلها من توليفة من أرواح نقيه لم تتشوه بعد، انتزعها انتزاعاً من العذارى الجميلات، الواحدة تلو الأخرى، وكأنه يقتنى ألوان لوحته الزيتية الفريدة،
- حين أتم غرينوى صناعة نفسه بنفسه حاول أن يفرضها على الناس - كل الناس - فرضاً، دون علاقة أصلاً
- نجح غرينوى - في ذلك من وجهة نظره بطريقته - فزاد انفصالاً عن الناس الذين سجدوا له، ذهولاً عنه، وعن أنفسهم،
- هكذا سقط غرينوى في هاوية التجاهل والإنكار، والوحدة من جديد.
- انكشف زيف ألوهيته له، قبل أن ينكشف للناس
- نجح غرينوى أن "يبقى" رغماً عن كل ما أنكروه عليه
- أن تبقى ليس مرادفاً لـ "أن تحيا"
- لم ينجح غرينوى أن يحيا بشراً بين البشر.
- الإنسان لا يكون بشراً بروحه ولا برأئحته ولا بسحره ولا بقوته ولا بتأثيره،
- الإنسان لا يكون بشراً إلا بجدل متصل مع بشر مثله تماماً، ليس مثله بمعنى أن يساويه أو يشبهه، وإنما مثله بمعنى أن يمارس نفس تجربة التواصل مثله، بنفس صعوباتها وجدلها

وتحدياتها ومفاجآتها،

- لا غرينوى ولا أمه، ولا أى ممن ظهرُوا فى الرواية استطاع أن يفعلها، لكنهم رضوا أن يحاولوا، وأن تستمر المحاولة حتى لا يتألهوا زيفاً.
- غرينوى قرر أن يستغنى عن المحاولة (عن الحب)
- النهاية مازالت تقلقنى
- وعندى لها أكثر من تفسير محتمل،
- لذلك سوف أوْجل الحديث عنها لعل أحد هذه الاحتمالات يرجع أثناء ممارسة النقد فقرة فقرة (إذا ما صلح هذا المنهج أصلاً!!)

## 100- تعدد الكيانات ومركبة الإبداع

## مقدمة

يبدو أن موضوع تعدد الكيانات (الذوات) سوف يجد فرصة في هذه اليومية ليأخذ حقه من الحوار والجدل والقبول والرفض، أكثر مما حدث حين تناولته كتابته في مواقع أخرى سابقة، فمنذ كتبت فيه المقال التنظري الأول الذى أشير إليه كلما عرجنا إلى هذا الموضوع "**الوحدة والتعدد في الكيان البشرى**" أكتوبر 1981 في الإنسان والتطور، ثم كتبت حوالى أربعة عشرة مقالة في تلك الصحيفة اليومية الخفية التى استضافتني تسعة أشهر لم يصلني خلالها تعقيب واحد يسمح لي بمعرفة ما وصل للناس مما أكتب، أو يتيح لي فرصة أن أناقشه أو يعدلني، أو يطورني، منذ ذلك الحين، وأنا أمارس مهنتي، وربما حياتي من هذا المنطلق، منطلق هذه الفكرة (دون أن أدري في كثير من الأحيان) إلى أن جاءت هذه الفرصة لإعادة فتح الملف هكذا من خلال هذه اليومية، وإذا بالنقاش يدور أكثر جدية، وربما أبعد أثرا.

لعل أهم ما دعاني إلى فتح الملف على مصراعيه هو محاورتي مع كل من د. أسامة عرفة، ورامى عادل يوم الجمعة الماضى، بالإضافة إلى ما وصلني من د. محمد يحيى الرخاوى من مقال نشر في باب "**المحرون الزوار**" باسم "**الوحدة والتعدد في التركيب البشرى .. كيف؟ إلى أين؟**". ثم فوجئت هذا الصباح بوصول تعليق آخر عن نفس الموضوع بشكل يسمح باستمرار الحوار، بل توجيهه.

لكن يبدو أن المسألة تجاوزت أن يحتويها حوار يوم الجمعة، فهى تلح في مواجهة أشمل بمسئولية أعمق، ولغة أقدر.

فتصورت أن تحديث هذه السلسلة من المقالات التى ظهرت يوما في تلك الصحيفة اليومية الخفية، يمكن أن يكون أرضية مناسبة لحوار مسئول ممتد.

فنبدأ اليوم بعلاقة هذه التعددية بالإبداع

الحركة هى الحل

وصل بنا الأمر، حتى ونحن نبحث عن تعريف للفطرة، أن

اعتبرنا أنها "الحركة الطبيعية إلى ما هي إليه"، وليست كيانا فجأ، أو قيمة أولية، وبذلك يستحيل أن نترادف الفطرة مع البدائية، ثم تكرر هذا التوجه للتأكيد على الحركة والجدل والتوجه والدال قبل المدلول، كل ذلك في مقابل التنبيه إلى الحذر، من التوقف عند التشريح والتوصيف واحتوى، وتوفيق الأوضاع، أو دوامية الصراع.

السبيل الأمثل لخل إشكال مواجهتنا بهذا التهديد المسمى "التعدد" (تهديد بما هو "حقيقة"!!) هو تبني فكرة **الحركة في مواجهة الحركة**، ولأن جاهل فعلاً بما يسمى الطبيعة الحديثة والرياضية الحديثة، وعلم نفس اللغة، وعلم الشواش وعلم التركيبية والعلم المعرفي، فإنني أطمع من خلال جهلى هذا أن يكون في عطاء هذه العلوم مجتمعة ما يمكننا من أن نستوعب معنى "حركية" في مواجهة "حركية"، بما في ذلك حركية الراصد والمرصود.

أعتقد أن ما هدانى (برغم جهلى السالف الذكر، وبسببه)، إلى اليقين الذى أعيشه حالياً وأحاول توصيله إلى الناس، حول مسألة تعدد **الكيانات داخلنا** هو حركية وعيى في مقابل حركية وعى مرضى أثناء العلاج الجمعى خاصة.

### من هنا نبدأ

التعدد هو حركة كيانات أكثر منه كيانات في حركة!! ياه !! لم أقصد، ولكننى سوف أترك هذا التعبير كما خرج منى هكذا للنقاش، مادام ثم نقاش،

من هنا يأتى مدخلنا إلى "حركية الإبداع" ليس بصفته موهبة نادرة، أو عبقرية متميزة أو ناتج فذ، بل بصفته أرقى أنواع التشكيل المتجدد لمستويات متعددة من الوعى بما تحويه ويحتويها من كيانات مرنة تسمح بهذا التشكيل في ناتج أصيل جديد، إن هذا المدخل هو الذى يمكن أن يهديننا إلى الاحاطة بالمعنى الحركى للتعدد من حيث المبدأ.

### المبدع

المبدع المتميز المنتج - كما نعرفه عادة - يمارس عملية الإبداع بإرادة مشتملة، يعى بعضها في ظاهر شعوره بدرجة ماء، لكن أغلبها (أغلب إرادة الإبداع) يأتى من عُفق شامل حركى عنيد مثير جاهر متحفز قادر.

عملية الإبداع هذه لا تحدث في وعى بديل يتناوب مع الوعى السائد، كما هو الحال في عملية الحلم، ولا هي (عملية الإبداع) تحدث في حالة وعى الصحو العادى الذى يمارس به حياتنا الروتينية طول الوقت،

لكنها تحدث في حالة خاصة من الوعى تسمى أحيانا "الوعى الفائق"، وأنا أفضل أن أسميها "الوعى المشتمل"، هذا الوعى الفائق/المشتمل هو حالة تحتوى أكثر من مستوى من مستويات الوعى "معا"،

فهى جماع وعى الصحو ووعى الحلم،  
وهى أيضا جماع وعى النصف الطاغى من المخ والنصف المتنحى،  
وكذلك هى جماع وعى مستويات الدماغ القديمة والحديثة،  
يحدث كل ذلك نتيجة لقدرة المبدع أن يعيش حركية  
المعلومات، ليخلق منها سيمفونية الإبداع،  
يفعل المبدع ذلك وهو فى حالة من الإفاقة تسمح له  
بإمكانية التشكيل الهادف الذى يحرك بدوره ويضيف.

حكاية "أنا واحد ولا كثير" اتسعت منا - بوجه حق - حتى  
قبلنا احتمال كيف يمكن أن نكون كيانات بلا حصر، لا لنتشتت  
فنجن، ولكن لنكون من المرونة والحركية بحيث نترجم تركيبنا من  
المعلومات الحية القادرة على دفعنا على مسار النمو  
والإبداع باستمرار، بتشكيلاتها فى كيانات متكاملة متحركة  
داخلنا، وليست مجرد ذكريات تستعاد، أو أجدية تستعمل.

هذا الكثير الذى نشر دائما إلى كيفية حركيته على مسرح  
الأحلام، هو الذى يتحرك فى حقل الإبداع فى وعى مختلف شديد  
اليقظة، بالغ الطزاجة، نشط الحركية، قادر على التشكيل  
لإخراج الجديد/المفاجأة/الدهشة/الجمال.

#### نوعان من المعلومات، وماهية الإبداع

المعلومة نوعان، تلك التى ألفنا الحديث عنها ونحن نتكلم  
عن عصر المعلومات، ونحن نحفظ المحفوظات، ونحن نسمع جدول  
الضرب. هذه المعلومات لها وظيفتها باعتبارها أجدية مستقلة  
نافعة، تستعمل من الظاهر إلا قليلا، هى تقع فى منطقة  
الرموز والتجريد أساسا، وهى تسمى أحيانا ذكريات،  
وأحيانا كلاما، وأحيانا (خطأ غالبا) "لغة"، وهى ليست  
مستقلة تماما عن كياننا الحيوى، لكنها تعتبر بمثابة حروف  
هجاء، أو أدوات صنعة التواصل والتفاهم أكثر منها كيانات  
حيوية نشطة بما هى.

النوع الآخر من المعلومات هو المنغرس أو الملتحم  
بيولوجيا بكياننا الحيوى، بدءاً بالدماغ، شاملا الجسد كله،  
وليس فقط المخزون فى مخزن الذاكرة، تلك هى المعلومة "الوحدة  
البيولوجية/المعنى"، التى تدخل إلينا باعتبارها "كيانا  
متكاملا من نبض، ووجدان، وحفز، ونشاط،

يتوقف شكل الإبداع ونتاجه على أجديته (المعلومة الأولى)  
وحركيته (المعلومة الثانية) معا.

الإبداع ليس قاصرا على نوع بذاته، أو شكل بذاته، وإنما  
هو يشمل أية عادة تشكيل تاتى مجديدا، وهو يصنف بحسب غلبة  
أجديته.

- فإذا كانت أجدية المبدع معادلات رياضية، وعلوم  
طبيعية، أخرج لنا نظرية فى الطبيعة أو الرياضة.

- وإن كانت أجديته هي المساحة، واللون، والحجم، أخرج لنا تحتاً جميلاً جيداً، أو لوحة غير مسبوقة من تأليف غير مألوف.

وإن كانت أجديته هي الناس والأحداث والتاريخ والواقع بكل تصنيفاته، فإنه ينسج لنا من كل هذا حركة أحداث أخرى، بعلاقات أخرى، في زمن آخر، فهو الروائي المبدع،

وإن كانت أجديته هي ألفاظ لغتنا العادية، لكنها تتألف بشكل آخر، في مساحات صور أخرى، مع تشكيل نغم آخر، فهو الشاعر، وهكذا.

كل هذا يقع تحت ما يسمى "إعادة تنظيم"، أو إعادة تشكيل، تماماً مثل العملية التي تجري في الخبز (من حيث المبدأ)

**الكائنات** التي ننتحدث عنها في مسألة التعدد هي أقرب إلى النوع الثاني من المعلومات، وإن كانت العلاقة بين النوعين ضرورية وقائمة طول الوقت، قلت هي أقرب إلى النوع الثاني وأضيف: لكن يستحيل عليها أن تستبعد استعمال النوع الأول من المعلومات.

في العلاج الجمعي تعلمت أنه - من خلال السيكدوراما أو الألعاب مثلًا - يمكن أن نقلب المعلومة الرمز المفهومة إلى المعلومة الكيان الحيوى بدرجة أو بأخرى.

مع بعض الدفاعات (الميكانيزمات) وخاصة العقلنة Intellectualization يمكن أن يحدث العكس، أى أن تختزل المعلومة الكيان إلى المعلومة الرمز، فتفرع من نبضها كياناً، لتستعمل من الظاهر أجدية.

الإبداع يلزمه نوعي المعلومات معا على مستويين متداخلين:

ليكون للإبداع ناتج يصل إلى الآخرين، فإنه يلزم أن تمر عملية الإبداع بطورين أساسيين: من حركة المعلومة (الكيان الحي) الأول إلى تشكيل الناتج في الشكل الذي تسمح به أجديته (المعلومة الرمز المفهوم).

من شهادات المبدعين

في إجابات عدد ليس قليلاً من المبدعين عن حركة إبداعهم من خلال تجاربهم، يمكن أن نرصد هذين المستويين، كيف تتم عملية الإبداع بالانتقال من مستوى المعلومات الخية (الكائنات التي هي نحن "كثير") إلى مستوى التعبير والتشكيل المتاح بالأدوات المتاحة:

إدوار الخراط: مجلة فصول- المجلد الثاني- العدد الرابع ص: 265 سنة (1982)

"... بدءاً، تتخلق القصة عندي - على الأغلب، أو على الأرجح - من صورة، صورة تتشكل في الوقت نفسه بأصوات، بكلمات (...).، فهي أساساً صورة تتخذ لنفسها على الفور جسداً من اللغة. وأظن أن لي لغتي، فهي تتخلق بالكلمة أو بنسق من الكلمات، بجرسها وإيقاعها"



وكتافتها...، وهى فى الآن نفسه تأتى حسية ومدركة، أى أنها تأتى حسية ومنتجدة، ولها طعمها ورائحتها وملمسها، ومرتبة شديدة الحضور البصرى أساساً".

### القراءة

نلاحظ تركيز الكاتب على المثير بوصفه "صورة"، تتشكل بأصوات (مثل الهلوسة) ، ثم إن الصورة تتخذ لنفسها جسداً من اللغة، ثم انظر النقلة التى أشرنا إليها فى موضوع الأحلام، والتى تؤكد ما ذهبنا إليه من تصنيف المعلومات فى قوله: "تتخذ الصورة لنفسها جسداً من اللغة". ثم لاحظ كيف أن هذا الجسد اللغوى له جرس وإيقاع وكثافة، قبل أن يكون له مضمون ودلالة. وأخيراً التأكيد على أنها حسية، ومرتبة شديدة الحضور البصرى أساساً.

هل هناك دليل أوضح من هذا يشير إلى أن المعلومات الأساسية فى الإبداع هى "كيانات" حية، وليست مجرد رمز أو تجريد؟ وأن هذه الكيانات هى "الكثير" بداخلنا جميعاً؟

**نجيب محفوظ:** مجلة فصول- المجلد الثانى - العدد الرابع ص: 303 سنة 1982  
... تدب حركة من نوع "ما" (التنصيب من عندى) فينشط الكاتب لتوصيلها إلى القارئ بعد أن تتجسد له فى شكل معين، ما هذه الحركة؟ قد تكون "أى شيء"، أو "لا شيء" بالذات..".

### القراءة

نلاحظ هنا تعبيرات "تدب حركة" "ما"، فلم يستطع محفوظ أن يلتقط من هذا الذى يدب (ينشط) إلا أنه من نوع "ما"، فهو ليس مجهولاً كل الجهل، كما أنه ليس محمداً بعد. ثم نلاحظ هنا تحديد استجابة الكاتب بأن ثم توصيلاً يُلج للإيجاز، وأن ثم "آخراً" يتوجه إليه التنشيط.

ثم يعود محفوظ ليجهل طبيعة هذه الحركة فى أنها "أى شيء" أو "لا شيء" بالذات" على نحو يتحقق معه التأكيد على البدء بمركية حيوية كما ذكرنا، وهو ما يشير إلى أن الخطوات الأولى للإبداع (والحلم) تتميز بمركيته وتوجهها أكثر مما تتميز بضمونها أو هدفها (الحدد).

الحركة البدء هنا ليست ترميزاً لموجود، ولكنها تحريك لكيان وكيانات كثيرة، هى نحن "الكثير"، فى جدل مستمر.

**يوسف إدريس:** مجلة فصول- المجلد الثانى- العدد الرابع ص: 305 سنة 1982  
" .. الإبداع عندى أشبه ما يكون بخلق الكون..، سديم من الإحساس يتكون داخلي، ثم تبدأ حركة هائلة الضخامة، بطينة الوقع. وتتخلق الأفكار من هذه الحركة السديمية للأحداث والشخصيات.. وبتوقف الحركة تكون القصة قد تخلق فيما أسماه القصة -الكون - الحياة التى هى أعلى مراحل السديم".

## القراءة

نلاحظ هنا تعبير "السديم" الذي له معنيان الأول "السديم: الضباب الرقيق"، والثاني: "السديم: مجموعة نجوم تظهر بعيدة، تظهر كأنها سحابة رقيقة"، وكلاهما يفيد ما أريد مما يناسب المقام هنا، والمعنيان متداخلان.

ثم نلاحظ كيف أن هذا السديم عند إدريس ليس مثولا ثابتا، بل هو حركة أساسا (الحركة السديمية)، ومع أنه ألق بها "للأحداث والأشخاص"، إلا أنها في مرحلتها السديمية تلك ليست أحداثا بذاتها أو أشخاصا متميزين بقدر ما هي تنبيء، وتجزم في الوقت نفسه، بأحداث وأشخاص "ما".

ثم إن الأفكار تتولد من هذه الحركة، وكأن الأفكار هنا هي التي تنشئ من هذا الضباب الرقيق (أو تكثفه إلى) ما هو، فهي ليست ترجمة الإحساس إلى مفاهيم بقدر ما هي تخليق لمفاهيم قادرة على استيعاب حركة السديم المنبثقة.

ومن ثم فإن الكيانات بداخلنا ليست موجودات ساكنة، ولكنها كيانات تتخلق، وهي ليست قاصرة على ما شاع عنها، وإنما هي مشتتة لكل معلومة حية بما هي، وبما يخرج منها مع غيرها في تشكيلات بلا حصر، وحركية لا تتوقف إلا لتنشط.

**أبو المعاطي أبو النجا: مجلة فصول- المجلد الثاني - العدد الرابع ص: 261 سنة 1982)**  
 " .. فأكتب القصة لأعبر عن شيء، أو لأمسك بشيء يتململ في داخلي، ويعجزني أن أعرف عليه قبل أن أضعه في شراك الصيغة القصصية الملائمة، لأجسد شيئا هلاميًّا، يفتقر إلى التجسيد، ليكتسب معنى " .

## القراءة

**نلاحظ هنا أيضا** معنى التنشيط الداخلي الذي أشرنا إليه، وذلك في قول أبو النجا: "يتململ في داخلي" .. إن هذا الذي يتململ هو بعيد عن التعرف عليه في ذاته بما هو، كما هو، إذ لا بد أن تصوغه إبداعية الكاتب في تخليق مكتمل. لاحظ قوله: **أضعه في شراك الصيغة القصصية**. ثم إن الكاتب قد وصف هذا المستوى المعرفي الأول بـ " الشيء"، وفي الوقت نفسه بالهلامية، وأنه لم يكتسب معناه بعد، ثم إنه لا يكتسب معناه إلا بعملية "الوضع (وتضع كل ذات حمل حملها) " في شراك المستوى المحتوى إياه، المتجادل معه.

أليست كل هذه كيانات حية؟ اليس هذا هو الكثير الذي نحن مصنوعون منه لنصير؟

## ننتقل إلى الشعراء

**نزار قباني ( قصتي مع الشعر- بيروت 1974 ص186-187)**  
 "نأتيني القصيدة - أول ماتأتى- بشكل حمل غير مكتملة، وغير مفسرة، تضرب كالبرق وتحتفي كالبرق. لا أحاول الإمساك بالبرق، بل أتركه يذهب، مكثفيا

بالإضاءة الأولى التي يحدثها... أرجع للظلام وأنتظر التمازج البرق من جديد، وحين تجمع البرق وتلاحقها، تحدث الإنارة النفسية الشاملة... وفي هذه المرحلة فقط أستطيع أن أتدخل إراديا في مراقبة القصيدة ورؤيتها بعقلي وبصيرتي".

### القراءة

هذا مثال آخر لمستوى مختلف من الشعر، نلاحظ فيه أن الشاعر يظل محتفظا بنبض المستوى الأول نفسه، حتى تظهر ملامحه في القصيدة نفسها بعد اكتمالها، وذلك من خلال مظاهر التكثيف والشفافية وتعدد الأبعاد في أكثر من توجه "معا". ثم إنه يستعمل كلمة "السديم" نفسها (مثل إدريس)، ولكنه يستعملها لوصف القصيدة ذاتها وليس لتفسير الحركة المخلقة لها.

### وبعد

نرجع إلى بداية هذا الفرض التوضيحي الذي يبنه إلى علاقة فكرة التعدد بالحركة، وليس بمجرد تعداد الكثيرين بداخلنا. إن صحة هذا الفرض إنما تدعمها حركية عملية الإبداع كما بينا.

الذي يترتب على ذلك هو التراجع عن المبالغة في التأكيد على التعدد بمعنى العدد، أو حصر هذا التعدد في وحدات بذاتها لها حدودها المتميزة المنفصلة، نتراجع عن هذا التناول السكوني المختزل، ليتسع وعينا إلى قبول فكرة الكثرة بما يسمح بتجسيد وحداتها بعمليات مختلفة لأهداف متنوعة.

ففي الإبداع كما ظهر من مقتطفات شهادات المبدعين، ومن قراءتنا لها تتجسد الوحدات معا في حركية جدلية ليعاد التشكيل.

وفي الدراما (النفسية) في العلاج الجمعي مثلا "تتعين" الوحدات حسب الدور الذي تلعبه أثناء تفاعل ما، كما يجرى أحيانا تعين Concretization الأفكار في كيانات يمكن أن تتجسد وتمثل(فبدلا من الحديث عن الحرية - مثلا - يمسد الكيان الحر ليلعب دوره، مقابل كيان خائف من الحرية) (وهكذا).

### الخلاصة

- إن قبول فكرة التعدد يشمل السماح بحركية إعادة التشكيل (الإبداع).
- إن تجسيد حركية التعدد في كيانات لحظية هو مفيد لتعميق التعامل مع كيانات قابلة وقادرة ألا تكون كيانات مستقلة نافرة أو غاطسة.
- إن التوقف عند "لفظة" فكرة التعدد، يقلبها لعبة كلامية معقلنة مفهومية مُفرغة.
- إن إلغاء فكرة التعدد خوفا من الاستسهال، والتسطيح والتسيب مهما بدا توفيقا لكل ذلك هو مخاطرة على حساب الحقيقة والمعرفة الأصعب.

- إن البحث عن لغة ومنهج أكثر قدرة على استيعاب مفهوم التعدد هو جار وواعد غالباً من خلال الإنجازات الأحدث لكل من اللغة والمنهج.

- إن حركية الإبداع هي شديدة الارتباط بحركية التعدد تفكيكا وجدلا وتشكيلا وتوجها.

- إن الربط بين حركية الإبداع، والجدل مع حركية الوعي الكوني، وطبيعة السعي المتواصل بينهما قد يكون مدخلا إلى الاستفادة من خبرات إبداع الوعي الذاتى فى رحاب الوعي الكوني (التصوف: إبداعاً) كدحا إلى وجه الحق سبحانه بغير نهاية.

- إن إنكار حركية التعدد قهراً وكبتاً مطلقاً يمكن أن يترتب عليه توقف النمو (اللا إبداع) كما يتجلى فى بعض أنواع اضطراب الشخصية.

- إن الإفراط فى السماح بطلاقة التعدد دون إعادة تشكيل، أو محور ضام، يسمح للتعدد أن يفكك "الواحدية" بتفعيل متناثر، وهو ما يظهر عادة فى صورة ما يسمى الفصام.

#### خاتمة

إن معاشة فكرة التعدد مع مرضى متوسطى التعليم وأمينين من مختلف الأعمار والطبقات الاجتماعية يتم بسلاسة وواقعية فى العلاج الجمعى (مثلاً) دون أية حاجة إلى كل ما سبق من تنظير!!!

الإثنيون 10-12-2007

## 101- الطفيل والتعدد والنمو والإبداع

## مقدمة

يبدو (مرة أخرى) أنه لا مفر من استمرار فتح ملف "تعدد الذوات" في التركيب البشري، والذي اسميناه بالعامية المصرية، "أنا واحد ولأكثر" فثبت أنه اسم أبلغ دلالة، ذلك أنني بعد كل يومية في هذا الموضوع ألاحق (أو أتصور أنني ألاحق) بتساؤلات أو اعتراضات أو حماس وتصفيق، أشعر من خلالها جميعاً أننا بعيدون عن الإلمام بأبعاد القضية كما عاينتها وأريد توصيلها بشكل أو بآخر.

حين عرجت أمس إلى علاقة الإبداع بفكرة التعدد، أو بدقة أكثر، بحقيقة **حركية التعدد**، كنت آمل أن أنجح في التأكيد على ما هو حركية في هذه القضية، بديلاً عن التوقف للتوصيف الساكن لذوات متعددة، مهما أوضحنا آليات وإعراب العلاقات بينها.

فإذا حاولنا مراجعة اختبار هذا الفرض كما تم في برنامج "سر اللعبة" link & link مع أسوياء متطوعين، لوجدنا أن النجاح الذي تحقق نسبياً في إثبات الفرض تم من خلال أن اللعب **نجح في تحريك الوعي نحو احتمالات ممكنة**، دون فرض وجهة نظر بذاتها.

الذي زاد الأمور اهتزازاً أو خطراً، لم يأت من ناحية المتحفظين والمتردددين في قبول الفكرة، بل من حماس الموافقين المختزلين لها. من أهم أشكال الاختزال كان الاقتصار على استعمال بعض لغة نظرية التحليل التفاعلاتي Transactional Analysis، أقول "بعض" هذه اللغة وليس كلها، الثالوث الذي يستعمل عادة هو ثالوث حالات "الطفل"، "اليافع"، "الوالد". نادراً ما قابلت من يعطى مستوى التحليل الفوقى أو البعدي Meta-analysis، أهمية كافية، وكذلك لا أحد يستعمل مفهومهما أدق وربما أهم هو مفهوم "وحدات الأنا" أو "وحدات الذات" Ego Units.

التحليل البعدي يتكلم عن أن كلا من هذه الذوات الثلاث الأشهر هي في ذاتها تحتوي طفلاً يافعاً ووالداً.

أما "وحدات الذات" فهي تعنى عددا بلا حصر من وحدات "فكر-وجدانية-سلوكية" معاً، يعلوا بعضها بعضاً، أو يتلو بعضها بعضاً.

ما أسهل أن نتكلم عن الطفل بداخلنا. أو أن فلانا مهما بلغ سنه أو شاعت عبقريته يتصرف بطفولة جميلة وطازجة، فيبدو طفلاً كبيراً، المسألة ليست بهذه البساطة، كما أن هذه البساطة لا تحم الفكر (أو الحقيقة) بما تستحق.

### البداية

لعل البداية من حركية الإبداع قد وضعتنا أمام ما ينبغي تناوله بزيد من التوضيح تدريجياً، وهو أن نواصل تقديم ما يدعم الفكرة (أو الحقيقة) من خلال تطبيقاتها وتجلياتها عند الأسوياء قبل المرض، أكثر من التنظير والمناقشات فإذا كنا قد بدأنا بالمتطوعين في برنامج "سر اللعبة"، ثم عرجنا إلى شهادات المبدعين، فنحن اليوم نحاول أن نتبين مزيداً من معالم الأطروحة من خلال النظر في الطفولة على مسار النضج.

### مسار النمو وتشكيلات التعدد والوحادية:

- يولد الطفل وهو يحمل كل تاريخ التعدد الذي يمثل تشكيلات كل الأحياء التي كانها وتطور من خلالها، حتى أفرزته (بإذن الله).
- منذ هذا البدء يتناغم إيقاعه الحيوى الفطرى مع الإيقاع الحيوى الكونى المنطلق "الانفصال للاتصال"، ذلك لأن ولادته بشراً تعنى استعداد له أن يكون له وعى ذاتى: انفصالا مؤلماً عن الوعى الكونى، في طريقه إلى اكتساب وعيه الخاص دون خلع مُباعد، بقدر ما هى تعلن بداية مسيرة طويلة واعدة.
- تتلاحق وتتابع بعد ذلك نبضات الإيقاع الحيوى للنمو والتناسق فيعيد الكائن البشرى تاريخه النابض، في مراحل متعاقبة:
  - نعرف ويمكن أن ترصد بعضها،
  - ونستنتج بعضها.
  - ونتخيل بعضها
  - ونجهل أغلبها.
- وفي كل مرحلة، قُصُرَتْ حتى الثوانى، أو طالت حتى السنوات يكون الإنسان الفرد واحداً ظاهراً في لحظة بذاتها.
- وفي نفس الوقت هو محتوى حركية التعدد (أو هو محتوى التعدد حركية) نابضاً من خلال دورات الإيقاع الحيوى.
- ومع كل نبضة نمو -التي قد تمتد سنين عددا خاصة في أزمة المراهقة ومنتصف العمر- يعاد تشكيل التركيب البشرى بحيث تصبح العلاقة بين الكيانات ليست مجرد ترجيح كيان مناسب واحد ظاهر فاعل للموقف الآتى، وإنما عملية تخليق واحدية ضامة طول الوقت من خلال الإيقاع الحيوى المستمر (بطؤريته: الإستيعاب والبسط).

- تتخلق هذه الواحدية الضامة من جدل مستمر، في تطور مستمر، يشمل أكثر فأكثر ما نجح أن ينضم إليها فيتمثلها لتظل نامية متوجهة إلى غايتها.
- لا تتحقق هذه الواحدية كاملة أبدا طالما ظل الإنسان هذا هو الكائن الذى نعرفه بشرا.
- وبالتالي يظل الإيقاع الحيوى نابضا على المستويات التى نعرفها والمستويات التى لا نعرفها، ويظل النمو مضطربا حسب الفرص المتاحة.
- توازيا مع هذه المسيرة، يظل الإيقاع الحيوى الكونى متسقا متناغما -بدرجات مختلفة- بشكل أو بآخر مع الإيقاع الحيوى الذاتى (ربما مرورا بدورات نمو المجتمعات والحضارات).
- كلما تقدمنا في مسيرة النمو تزايد احتمال تخليق الواحدية الضامة التى تتناغم مع الإيقاع الكونى أكثر فأكثر باضطراد.
- في أزمة الموت، يعود التناغم بين الوعى الذاتى والوعى الكونى متسقا بقدر نجاح نمو هذه الواحدية النابضة في تناسق مع إيقاعية الكون توجها إلى وجه الحق تعالى.

#### حس من الإبداع للطفل يدعم فرض التعدد.

تناولت قبلا رأيا أن الباحث هو أداة البحث وحقله في دراسة الطفولة (والجنون) Link ، كذلك فإننى أرى أن المبدع (وهو باحث فانق إن صدق إبداعه) هو أيضا أداة إبداعه وهو يتحسس طريقة إلى عالم الأطفال، أو وهو يوجه خطابه للأطفال، أو وهو ينقد نضا عن الأطفال.

#### مقتطف دال، ومقتطف

سوف أحاول الآن عرض بعض ما يدعم فرض التعدد هنا من اقتطافات محدودة قمت بها ناقدا في هذا المجال:

#### (1) من نقد نيتوتشكا نزانوف: ديستوفسكى

ذكرت في هذا العمل Link كيف تعلمت سيكولوجية الطفولة، وسيكولوجية النضج من ديستوفسكى أكثر مما تعلمته من كتب علم النفس والتربية، وسوف أقصر على بضعة إشارات لأدوار تجلت في الطفلة نيتوتشكا، هذه الأدوار هى ما قد نشر إليها أحيانا باعتبارها كيانات

منذ البداية بدت نيتوتشكا أمّا لأبيها كالتالى:

نيتوتشكا: "حتى لأستطيع أن أقول أن هذه العاطفة تشتمل على شئ مما تشعر به الأم نحو إبنها من حب وقلق" (ص66)

وهى ذات نفسها تعلن غرابة الأمر (لنتعلم! وباليتنا نفعل) وهى تكمل:

"إن لم يكن مضحكا أن توصف عاطفة طفل بمثل هذا" (ص66)

يبدو أن الذى يحدد "من الوالد" و"من الطفل" ليس هو

السن أو القبل العلوية أو مَنْ يجلس على ركبتى من، وإنما  
إتجاه الاعتمادية ونوع وعى كل طرف بالآخر:

فالأب هنا بدا هو الأضعف، إذن: فهو أول بالطفولة!

"كان يتراءى لى أن أبى حقيق بالرثاء، معذب، مضطهد" (ص66)

ثم بالتالى:

"وأن من الظلم ألا أحبه حبا قويا" (ص66)

"ومع أنى كنت طفلة، استطعت أن أنفذ إلى أعماقه" (ص102)

"لا شك أنه هو الطفل لا أنا، ما دام يحدثنى بهذه اللهجة  
عن أعدائه" (ص102)

وقد ظلت أمومتها لأبيها تلاحقها حتى فى أقصى لحظة فى حياتها  
حين تركها فى الشارع غدرا بعد وفاة والدتها، فبدلا من أن  
تثور عليه وترفضه أو على الأقل تعامله تَزَكَا بَتْرِك، ظلت  
تجرى وراءه لا لتحتمى به.. ولكن لترعاه:

"أخذت أعدو وراءه عدوا سريعا وقد تملكى خوف مجنون..  
ووجدت قبعته فى الطريق، لقد سقطت عن رأسه وهو يعدو فحملت  
القبعة وتابعت عدوى.. كنت أشفق على أبى، كان صدرى يحنن  
إذ أتذكر أنه بلا معطف، وبلا قبعة، بعيدا عني"

ثم تتجلى لنا نيوتوتشكا فى تشكيلات وكيانات عدة أطفال  
بالتبادل غالبا، فثمة: الطفلة الدمية، الطفلة الطفلة،  
والطفلة الأخت، والطفلة الأم.

قد يقال إنها أوجه مختلفة لسلوكيات متنوعة (ومتناقضة)  
حسب المواقف المختلفة، لكن النقد ناقش ذلك وما وراءه من  
كيانات دون أن ينفيه.

ويمكن الرجوع إلى كل ذلك فى النقد الأسمى link ، وفيه  
امتداد إلى مثل ذلك فى "قصة البطل الصغير" لديستوفسكى أيضا.

هانز كريستيان أندرسون  
فإذا انتقلنا من ديستوفسكى إلى هانز كريستيان  
أندرسون، لراعنا ثلاثة أمور

الأول: كيف عرف هذا المبدع الشاعر الجميل ذلك التركيب  
المتعدد النامى للأطفال إلا بأنه استطاع أن يحرك أطفاله  
بداخله

الثانى: كيف استطاع من خلال ذلك وغيره أن يخاطب الأطفال  
(بما فى ذلك الأطفال داخلنا)

الثالث: كيف مجدسه الشعرى والإبداعى رصد مسيرة النمو  
هكذا من خلال هذا التعدد.

قصة الظل [11]



سوف أثبت القصة كلها حتى استغل سماح المساحة (ما دمتنا في الموقع الرحب)،

ولأنني أشك أن اختزالها أو تلخيصها يمكن أن يقوم بتشويهها،

كما أني استبعد أن يكون القارئ (الزائر) قد قرأها، أو إذا كان قد قرأها أنه مازال يتذكرها.

القصة: (الظل)

(ص 75) [2]2 في البلاد الحارة، حيث الشمس حارقة يصطبغ الناس بلون بنيّ تماما، وفي البلدان الأشد حرارة يجترقون حد السواد، ولكن هذا ولحسن الحظ كان يحدث فقط في البلاد الحارة. طالب علم قد جاء البلاد الباردة واعتقد أن بإمكانه تدبر أمر ذلك، كما في بلده. لكنه سرعان ما أقلع عن الفكرة، فهو وكل الناس العاقلين كان عليهم البقاء داخل بيوتهم.

مصاريع الشبابيك والأبواب مغلقة طوال اليوم، يبدو وكأن البيوت بمن فيها نيام، أو كأن لا أحد فيها. الأزقة الضيقة بين البيوت العالية، حيث يسكن، كانت هي الأخرى قد بُنيت أيضا بحيث تظل أشعة الشمس من الصباح إلى المساء هناك. لم يكن الأمر الباردة كان رجلا شابا، رجلا ذكيا، شعر بأنه قد جلس في فرن ساخن. لقد تمكن الحرمه، هزلّ تماما، حتى ظله انكمش، صار أصغر بكثير مما كان عليه في بلده، فالشمس قد أخذت منه مأخذا، لم يكونا، هو وظله، يعيشان إلا بعد مغيب الشمس عند المساء.

كان مثيرا للدهشة رؤية الظل حال دخول الضوء إلى الصالة، وهو يتمدد عاليا على طول الجدار، بل وحتى السقف. لقد استطال كثيرا. كان عليه أن يتمطى ليسرّد قواه. خرج طالب العلم إلى الشرفة ليتدمد هناك.

مع ظهور النجمة تلو الأخرى في ذلك الجو الصافي اللطيف يشعر وكأنه يعود إلى الحياة مرة ثانية.

أطل الناس من كل الشرفات في الشارع، ففي البلاد الحارة هناك لكل شبك شرفة، لأن المرء يحتاج إلى نسمة هواء، رغم أن المرء اعتاد أن يكون بلون بنيّ!

دبت الحياة في كل مكان فنزل الإسكافيون، الخياطون وكل الناس إلى الشارع. ووضعت الطاولات والكراسي، وأوقدت الشموع، أجل، أكثر من ألف شمعة أوقدت. وهناك واحد يحكي وآخر يغني، والناس تتمشى، العربات تروح ونجئ، والخمير تحمل أجراسا تصدر أصواتا "دك دك دك"، وهناك جثمان يدفن ترافقه التواشيح، والأولاد يقذفون الحجر بنقافتهم، وأجراس الكنائس تُدق. أجل، كانت هناك حياة نشيطة في الشارع.

ما عدا ذلك البيت المقابل، حيث يسكن طالب العلم الغريب، كان هناك هدوء مطبق. ومع ذلك فهناك يعيش أحد

ما، ففى الشرفة زهور انتعشت جراحة الشمس، فهى لم تكن كذلك لو لم يتم سقيها، إذ لابد من أحد ما يسقيها، لابد من وجود أناس هناك. فَبِح باب الشرفة أخيراً فى وقت متقدم من ذاك المساء، وكان الداخل مظلماً، على الأقل فى الغرفة الأمامية. ومن العمق ينبعث صوت موسيقى. (ص 77) دهب الرجل طالب العلم الغريب فذلك لم يكن له مثيل، ولكن ذلك يمكن أن يكون مجرد خيال لأنه وجد كل شئ استثنائياً فى تلك البلاد الحارة، لو لم تكن هناك شمس.

المؤجر قال بأنه لم يعرف من استأجر البيت المقابل، لم ير المرء أناساً، وأما ما يحس الموسيقى يعتقد هو بأنها مملّة بشكل فظيح" وكان أحداً ما قد جلس وتمرن على معزوفة لم يتمكن الخروج منها، دائماً ذات المعزوفة، "سأخرج منها حتماً!"، ولكنه لن يخرج منها، مهما طال عزفه".

ذات ليلة صحا الغريب، إذ كان نائماً وباب الشرفة مفتوح، ارتفعت الستارة أمامه بفعل الريح، واعتقد هو بأن لعانا عجيباً جاء من شرفة الجار المقابل، كل الزهور التمتعت كالشعلات بأهل الألوان وفى وسط الزهور وقفت عذراء رشيقة مليحة، وكأنها هى أيضاً أضاءت. غشى الضوء عينيه، ففتحتها على وسعهما، وبقفزة واحدة كان على الأرض. وجذر خرج من خلف الستارة، ولكن العذراء كانت مجالمة جيدة كما هى دوماً. كان الباب موارباً، ومن العمق تزدد الموسيقى، عذبة ومجيلة. وكان يمكن للمرء أن يسرح حينها كلياً فى أفكار حلوة. كان الأمر فى الواقع كمشهد سحرى، من يسكن هناك؟ وأين هو المدخل الحقيقى؟ كل الطابق الأرضى كان مقسماً إلى دكاكين متلاصقة، فلا يمكن للناس على أية حال دوماً المرور من خلالها.

ذات مساء جلس الغريب فى الشرفة، كان الشمع من خلفه داخل الصالة موقداً، ولهذا كان من الطبيعى أن يكون ظله على جدار جاره المقابل، نعم، استقر هناك بين الزهور تماماً فى الشرفة، وعندما يتحرك الغريب، يتحرك الظل أيضاً، وهذا هو الطبيعى.

"أظن بأن ظلى هو الوحيد الحى هناك!" قال الرجل طالب العلم "انظر، كم هو لطيف وهو يجلس وسط الزهور، الباب موارب، والآن على الظل أن يكون حاذقاً ويمشى إلى الداخل، ينظر لما حوله ثم يأتى (ص 78) ويحدثنى عما رآه، نعم، عليك أن تقوم بعمل مفيد "قال مازحاً" ادخل هناك، ماذا! هل ستذهب؟" ومن ثم أحنى رأسه إلى الظل، فأحنى الظل رأسه موافقاً. "أجل، إذاً إذهب، ولكن لا تغبّ طويلاً!"

نهض الغريب من مكانه فنهض ظله فى شرفة الجار المقابل أيضاً، واستدار الغريب فاستدار الظل أيضاً، أجل، لو انتبه أحد بشكل جيد لكان بإمكانه أن يرى بوضوح، أن الظل قد دخل من خلال باب الشرفة الموارب عند الجار المقابل، فى اللحظة التى دخل فيها الغريب صالته وترك الستارة الطويلة تنسدل خلفه.

فى اليوم التالى ذهب الرجل طالب العلم ليشرب القهوة ويقراً

بعض الصحف. "ولكن ما هذا!" قال عندما خرج تحت أشعة الشمس، "أين ظلي! إذاً لقد راح البارحة فعلاً ولم يعد ثانية، إن هذا لأمر مؤسف!

أزعجه ذلك كثيراً، ليس لأن الظل اختفى، ولكن لأنه علم بأن هناك قصة ثانية لرجل بلا ظل، يعرفها الناس جميعاً في البلاد الباردة، والآن لو جاء طالب العلم نفسه وحكى قصته، سيقول الناس بأن هذه ليست قصته، وهو لم يكن بحاجة لذلك، لهذا لم يشأ إطلاقاً التحدث عن ذلك، وهذا كان تفكيراً معقولاً.

عند المساء خرج إلى الشرفة مرة أخرى، وضع الشمعة تماماً خلفه، لأنه عرف بأن الظل يريد سيده غطاءً له دوماً، ولكنه لم يستطع غوايته كي يظهر. جعل من نفسه صغيراً، كبيراً، ومع هذا لم يكن هناك ظل، لم يكن هناك أحد! تنحج، إحم! ولكن بلا جدوى.

كان الأمر محزناً، ولكن في البلاد الحارة والتي ينمو بها كل شئ بسرعة فائقة، لاحظ ويا لسروره الكبير وبعد مرور ثمانية أيام بأن ظلاً جديداً قد نما له، برز من قدميه عندما خرج إلى أشعة الشمس. لابد إن الجذر كان باقياً في مكانه. بعد ثلاثة أسابيع صار لديه ظل لا بأس به. وعندما قفل راجعاً إلى البلدان الشمالية، نما أثناء الرحلة أكثر وأكثر، حتى إنه أصبح أخيراً طويلاً وكبيراً جداً حيث إن نصفه يكون كافياً، (ص79) ولما وصل طالب العلم إلى بلده ألف كتباً حول ما هو حقيقى في العالم، وحول ما هو خير، وحول ما هو جميل. ومرت الأيام، والسنوات، سنوات عديدة.

و ذات مساء وعندما كان جالسا في صالته، نقر على الباب نقر خفيف.

"ادخل! قال طالب العلم، فلم يدخل أحد، قام وفتح الباب، فرأى انساناً نحيفاً للغاية أمامه، اعتراه إثر ذلك شعور غريب بالمناسبة كان هذا الإنسان حسن الثياب، ومظهره يدل على أنه ذو حسب ونسب.

"من الذى تشرفى مخاطبته؟" قال طالب العلم.

"نعم، هذا ما فكرت به!" قال الرجل الأنيق "حضرتك لم تتعرف على! لقد صار لي جسم، لدى الآن وفر من اللحم والثياب. حضرتك لم تفكر أبداً بالتأكد في يوم ما بأن تراه بهذا الجاه. ألم تتعرف حضرتك على ذلك القديم؟ نعم، بالتأكيد لم تعتقد حضرتك بأنى سأعود ثانية. معى سارت الأمور بشكل جيد للغاية منذ آخر مرة كنت فيها عندك. لقد صرت صاحب ثروة ونفوذ! لو كنت عبداً فبإمكانى شراء حريت!" خرخشت المسكوكات الثمينة التى كانت معلقة بالساعة عندما أمسك بيده السلسلة الذهبية السميقة التى حملها حول رقبته، باللروعة فالأصابع كلها تلمع بالخواتم الماسية! وكلها أصلية.

"هل أنا في وعي! "تساءل الرجل طالب العلم، " ما كل هذا!"

[1]1 - هذا الجزء مقتطف من مقال نقدى أطول للكاتب ظهر في وجهات نظر، باسم أطفالنا بين روح الشعر ونظم الحكمة، مارس 2005  
 [2]1 - هانز كريستيان اندرسون، جريدة القاهرة "الجزء الثانى"، دار المدى، 2005

"معك حق، ليس الأمر عاديا، قال الظل، ولكنك أيضا لست من العامة، وأنا تعرف تماما حضرتك، مشيت منذ نعومة أظفاري على خطاك. حالما تأكدت بأنني قادر لأن أتدبر شأني وحدى شققت طريقي الخاص بنفسى، أنا الآن في عز تألقى ولعاني، لكن داهمني نوع من الخنين لرؤية حضرتك، قبل أن تموت حضرتك، أنت تعرف بأن حضرتك ستموت ! أنا أود لو أرى مجددا تلك البلدان، لأن المرء يجن بالتأكيد دوما إلى أرض أجداده! وعلمت بأن حضرتك قد حصلت على ظل (ص 80) جديد من جديد، أمدين أنا حضرتك أو له بشئ لأدفعه؟ حضرتك تأمر."

"أحقا هو أنت!" قال طالب العلم، "إن هذا الأمر غريب جدا! لم أعتقد يوما بأن ظلا قديما لإنسان ما يمكن أن يعود هينة إنسان!"

"قل لي، كم على أن أدفع! قال الظل، "فأنا لا أحب أن تكون على ديون من أى نوع!"

"كيف لك أن تقول هذا!" قال طالب العلم. "ما علاقة هذا بالديون! لتتحرر كأي شخص آخر! يسعدني جدا أن يوافقك الحظ! إجلس أيها الصديق القديم، حدثني ولو قليلا، كيف حدث ذلك، وما الذي رأيته عند الجار المقابل هناك في البلاد الحارة!"

"نعم، سوف أخبر حضرتك،" قال الظل وجلس، "ولكن على حضرتك أن تعدني، بالأخبار احدا هنا في المدينة، وحيثما تلقاني، بأنني كنت ظل حضرتك! ففي نيتي أن أخطب فتاة، لأن بمقدوري الآن إعالة أكثر من عائلة!"

"إطمئن تماما!:" قال طالب العلم، "لن أخبر أحدا عن حقيقة من تكون! هاك يدي، أعذك والرجل كلمة!"

### "الكلمة ظل!"

قال الظل، ولم يمكنه قولها بغير هذا الشكل.

وغريب كم بدا ذلك الظل إنسانا، بلباسه الأسود، والذي كان من أرقى الثياب، والجزمة اللامعة، والقبعة التي يمكن أن تطبق فلا يظهر منها غير أعلاها وصيوانها، عدا عن الذي عرفناه من قبل من مسكوكات، وسلسلة العنق الذهبية وخواتم الألباس. أجل، الظل كان أنيقا بشكل غير عادي، وهذا كان بالضبط ما جعله يبدو وبالفعل إنسانا.

"والآن دعني أخبرك!" قال الظل، وخطب بالجزمة اللامعة الأرض بكل ما أوتي من قوة على ذراع الظل الجديد لطالب العلم، والذي استقر ككلب البودل عند قدميه، وكان هذا إما خماسته، أو لأنه أراد من الظل الجديد أن يواصل الإصغاء. وبقي الظل المستلقى ساكنا هادئا (ص 81) حريصا على الإنصات. هو بالتأكيد يود معرفة كيف يمكن للمرء أن يتحرر هكذا ويرتقى ليصير سيد نفسه.

"هل عرفت حضرتك من الذي كان ساكنا في البيت المقابل؟"

سأل الظل". كان أجهل الكل، كانت روح الشعر! كنت هناك لثلاثة أسابيع، كان مفعولها كما لو كان المرء قد عاش لثلاثة آلاف سنة وقرأ كل ما نظم وكتب من شعر، ولأنى أنا الذى أقول، فهو صحيح، لقد رأيت كل شئ وأعلم كل شئ!"

"روح الشعر!" صاح الرجل طالب العلم!" نعم، نعم، إنها متصومة دوماً في المدن الكبرى! روح الشعر! أجل، لقد رأيتها مرة خطفاً، ولكن النعاس خظتها قد أطبق على عيني! كانت تقف في الشرفة، أشرقت كما يشرق الشفق الشمالى! إحك، إحك! كنت في الشرفة، دخلت عبر الباب، ثم..!" سأل طالب العلم.

"ثم صرت في الممر الموزع!" قال الظل. "حضرتك كنت دائماً تجلس وترنو إلى الممر. لم يكن هناك ضوء نهائياً، فهناك ما يشبه الشفق، ولكن الأبواب كانت جميعاً مفتوحة الواحد على الآخر على طول الصالات والقاعات، وهناك أضئ المكان، لو كنت دخلت حيث العذراء لكنك قد مت، لكنى كنت متانياً، أخذت بعض الوقت للتفكير، هذا عين الصواب!"

"وما رأيت بعدها؟" سأل الرجل طالب العلم.

"رأيت كل شئ، ولسوف أحكى لحضرتك، ولكن، ليس اعتزازاً بنفسى، ولكن، ككائن حر وبهذه القابليات التى لدى، إضافة إلى وضعى الجيد وأحوالى الحسنة، أتمنى من حضرتك لو تخاطبني بشكل رسمى!"

"المعذرة!" قال طالب العلم، "إنها عادة قديمة متأصلة! حضرتك على حق تماماً! ولسوف أتذكر ذلك، ولكن الآن ستخبرنى حضرتك عن كل شئ رآه حضرتك!"

"كل شئ" قال الظل، "لانى رأيت كل شئ، وأعلم كل شئ!" (ص 82) "كيف بدت الصالات في عمق البيت؟" سأل طالب العلم.

"هل كان مثل دخول في غابة نضرة أو كدخول إلى كنيسة مقدسة؟ وهل كانت الصالات كبيرة مفتوحة وكأنها السماء المرصعة بالنجوم عندما يقف المرء على الجبال العالية؟"

"كل شئ كان هناك" قال الظل. "حقيقة لم أدخل تماماً إلى الداخل، بقيت في الغرفة الأمامية عند الشفق، ولكنى كنت واقفاً بمكان مناسب، رأيت كل شئ، وأعلم كل شئ!، لقد كنت مع حاشية روح الشعر في الممر الموزع".

ولكن ما الذى رآه حضرتك؟ هل مر بالقاعات الكبيرة كل آلهة العصر القديم؟ هل حارب هناك الأبطال القدماء؟ هل لعب الأطفال الجميلون وحكوا عن أحلامهم؟"

"أقول لحضرتك، كنت هناك، هل بإمكانك أن تدرك، رأيت كل ما يمكن أن يرى! لو جئت لحضرتك هناك، لما صرت إنساناً، ولكنى صرت" وعرفت طبيعتى أيضاً، وما خلقت عليه، علاقتى العائلية بروح الشعر. أجل، عندما كنت مع حضرتك في ذلك الزمن لم أفكر بذلك. ولكن بشروق الشمس، بغياها، كما تعرف حضرتك، صرت كبيراً بشكل غريب على ضوء القمر كنت أوشك

تقريباً أن أصبر أوضح من حضرتك. لم أفهم وقتها طبيعتي، أدركت ذلك في الممر الموزع! صرت إنساناً! خرجت راشداً، كنت حضرتك حينها قد تركت البلاد الحارة، خجلت من نفسي، كإنسان، بأن أخرج بالطريقة التي خرجت بها. احتجت إلى جزمة، لباس، إلى كل تلك الهيئته الإنسانية، التي تجعل إنساناً ما مُعْرِفاً. انطلقت، أجل، أقولها ل حضرتك وحدك، ولن تذكر حضرتك هذا في كتاب، تسللت داخل تنورة الحيازة، اختفيت تحتها. لا تعلم تلك المرأة بما خفي تحت تورقها، لم أخرج إلا عند حلول المساء، تنقلت من مكان لآخر تحت ضوء القمر في الشارع. أطلت قامتى على طول الجدار، ذلك يدغدغ الظهر بشكل لذيذ! ركضت إلى الأعلى، وركضت إلى الأسفل، نظرت عبر أعلى النوافذ، إلى الداخل (ص 83) في القاعة وعلى السقف، نظرت في أمكنة لا يمكن لأحد أن يصلها، ورأيت ما لا يمكن لأحد أن يرى. وما لا يجب لأحد أن يرى! إنه عالم وضيع! لم أشأ أن أكون إنساناً، لو لم يكن هذا الأمر ذا اعتبار ومقرر من الجميع! رأيت كل ما لا يحظر على بال بين النساء، عند الرجال، عند أولياء الأمور، والأطفال الذين لا يباهيهم أحد. "علمت" قال الظل، "ما لا يجب لإنسان أن يعلم، ولكنه يتحرق لمعرفة، كمصاب الحار، لو كتبت جريدة، للاقى رواجاً! ولكني كنت أكتب للشخص المعنى تحديداً، فيحل رعب في كل المدن التي أحل بها. صاروا يخافون مني كثيراً! ولهذا أحبوني كثيراً! البروفيسورية جعلوا مني بروفيسوراً، الخياطون أعطوني لباساً جديداً، لهذا أنا مجهز بكل شيء، والذي يسك النقود سك لي نقوداً، والنساء قلن لي بأنني جميل جداً! وهكذا صرت الرجل الذي أنا عليه اليوم! والآن أودعك، هاك بطاقتي، أسكن في جهة الشمس، وعلى الدوام في البيت في الجو الممطر! وخرج الظل.

"عجيب غريب!" قال طالب العلم.

مرت السنون والأيام، وجاء الظل مرة أخرى وسأل، "كيف تسير الأمور؟"

"أوه" قال الرجل طالب العلم، "أكتب عن الحقيقة والخير والجمال، ولكن لا أحد يعجبه سماع شيء من هذا القبيل، أنا بالفعل يائس، لأن ذلك يغمى.

"لكن أنا لآ! "قال الظل" أنا أصبر أسمن، وهذا ما يجب على المرء أن يحرص على أن يكونه! نعم، حضرتك لا تفهم حقيقة هذا العالم، ستمرض حضرتك من جراء ذلك، وعلى حضرتك أن تسافر! سأقوم برحلة في الصيف، هل ترافقني حضرتك؟ أتمنى أن يكون لدى رفيق سفر! هل ترغب حضرتك بالسفر معي، كظل؟ إنها لمتعة كبيرة أن تكون حضرتك معي، أنا أتكفل مصاريف الرحلة!"

"إن هذا لكثير!" قال طالب العلم. (ص 84) "ذلك يعتمد على رؤية المرء للأمر!" قال الظل، "ستجني الكثير من السفر! إن قبلت أن تكون ظلي، ستحصل على كل شيء مجاناً في الرحلة!"

هذا جنون! "قال الرجل طالب العلم.

"هكذا هو العالم اليوم! قال الظل"، وهكذا سيبقى وراح الظل.

لم يكن الرجل طالب العلم على ما يرام. الحزن والعذاب طاردها، وما قاله عن الحقيقة والخير والجمال، كان بالنسبة للغالبية كإهداء وردة لبقرة! وأصبح أخيراً مريضاً بالفعل.

"تبدو حضرتك بالفعل كظل" قال الناس لطالب العلم فاقشعر بدنه للقول، لأنه كان يفكر بذلك.

"يجب على حضرتك أن تقصد حماماً صحياناً!" قال الظل، الذي جاء لزيارته، "لا حل غير ذلك! سأخذ حضرتك معي من أجل معرفتنا القديمة، أنا أدفع تكاليف الرحلة، أما حضرتك فعليك الكتابة وشئ من قبيل الترفيه عني في الطريق! لأن أود الذهاب إلى حمام صحي، لحيث لا تنمو كما يجب، إنه مرض، واللحية لا بد منها! كن حضرتك عاقلاً واقبل العرض، سنسافر كأصدقاء!".

وسافرا معاً، الظل كان هو السيد، والسيد كان الظل. انطلقا سوياً، ركبا العربة ومشيا معاً، جنباً إلى جنب، أمام وخلف، حسب موقع الشمس. الظل حرص على الجلوس دائماً بمكن السيد، أما طالب العلم فلم يفكر هكذا بالأمر، كان ذا قلب طيب، ورفيقاً ولطيفاً جداً، وذات يوم قال للظل: "بما أننا أصبحنا رفيقياً سفر، كما نحن الآن، ونحن أيضاً قد نشأنا منذ الطفولة معاً، ألا نشرب نخب رفع الكلفة بيننا، إنه أمر أكثر ألفة!"

فرد الظل الذي كان هو السيد الآن "سمعت حضرتك، فاسمعي الآن، قولك مباشر وصريح وبنية حسنة، وأود أنا أن أكون حسن النية وصريحاً أيضاً. حضرتك كطالب علم، تعرف بالتأكيد كم هي غريبة. (ص85) طبيعة الإنسان. بعض الناس لا تتحمل أن تمس الورق الأسمر، تتأذى من جراء ذلك، آخرون تقشعر أبدانهم بمجرد سماعهم أزه مسمار على زجاج نافذة، ينتابني شعور كهذا مجرد أن أسمعك تناديني بـ أنت أشعر وكأنني قد سحقت على الأرض تماماً كما في خدمتي الأولى عند حضرتك. كما ترى حضرتك إنه شعور، وليس تعالياً. لا أستطيع أن أسمع حضرتك أن تقول لي: أنت، هكذا، ولكني أود مناداتك بـ أنت بدل حضرتك، وبهذا نكون قد رفعنا نصف الكلفة".

وبدأ الظل بمخاطبة سيده السابق مباشرة.

إن هذا جنون ولا شك، "فكر طالب العلم"، أن أناديه بـ حضرتك وهو يناديني بإسمى!" وهو لا يملك إلا أن يتحمل هذا الأمر.

وجاء المصح كان فيه الكثير من الغرباء ومن بينهم ابنة ملك جميلة، كانت تشكو من علة وهي أنها نافذة البصرة، وهذا ما كان يثير القلق.

انتهت ابنة الملك لهذا الذي دخل في الحال، كان شخصاً يختلف تماماً عن الباقيين، قيل انه جاء ليجعل لحيته تنمو، ولكني أرى أن السبب الحقيقي أنه بلا ظل.

تملكها الفضول، وراحت تتحدث بالحال مع السيد الغريب أثناء تمشييهما. كإبنة ملك لم يكن الأمر يحتاج للكثير من المقدمات، قالت "مرضكم هو أن حضرتك لا تستدطم أن ترمى ظلا" لايد وإن جلالتم بتحسن! قال الظل، "أعلم بأن مرض حضرتك هو نفاذ البصيرة، ولكنه صار أخف وطأة، لقد شفيت حضرتك، فلدى الآن ظل غير اعتيادي! ألا ترين حضرتك ذلك الشخص الذي يسير دوما معي! فأناس آخرون لديهم ظل اعتيادي، ولكنني لا أحب ما هو اعتيادي. الناس في الغالب تلبس خدمها أفضل لباس، أنا هذبت ظلي وجعلت منه إنسانا! أجل، وكما ترين حضرتك، فقد منحته ظلا أيضا.

ذلك مكلف جدا، ولكي أحب أن أملك ما هو متميز !

ماذا ؟ فكرت الأميرة، هل شفيت فعلا!، هذا الحمام هو الأول (ص86) من نوعه في فعالتيته! يا للماء في وقتنا هذا من قوى عجيبة. ولكي لن أسافر، لأن الأمر أصبح الآن مسليا، يعجبني هذا الغريب بالفعل. عل خيته لا تنمو، كي لا يسافر!"

في المساء وقصت الأميرة والظل في قاعة الرقص الكبيرة. كانت خفيفة، ولكنه كان أخف. لم تر راقصا مثله قط. أخبرته من أي بلد جاءت، وقد عرف البلد، حيث كان هناك، ولكنها في ذلك الوقت لم تكن في القصر، نظر عبر النوافذ العليا والسفلى، رأى كل شيء، ولذا فقد تمكن من إجابة إبنة الملك ملمحا لها بعض التلميحات مما جعلها تتعجب. لعله أكثر الرجال حكمة في العالم كله! أكنث تقديرا لمعرفته، وعندما رقصا معا مرة ثانية وقعت في حبه، وقد شعر الظل بذلك، لأنها كانت قادرة على سبر غوره. ومن ثم رقصا مرة أخرى، وكانت على وشك أن تقولها، ولكنها كانت متعقلة. فكرت ببلدها والمملكة والناس الذين ستحكمهم. "هو رجل حكيم!" قالت لنفسها، "هذا جيد!" وهو راقص جيد، هذا أيضا جيد، ولكن يا ترى هل لديه الملم عميق بمختلف العلوم والمعارف، هل له ذات الأهمية، يجب أن يتم اختياره". وهكذا بدأت قليلا قليلا بسؤاله عن أصعب الأشياء، حتى لاتعرف لها جوابا. تغيرت معالم وجه الظل.

"لايمكن ل حضرتك أن تجيب!" قالت ابنة الملك؟

"إنه سؤال يوجه للمبتدئين، قال الظل، " حتى ظلي هناك عند الباب يمكنه الإجابة عليه!"

ظل حضرتك؟ قالت إبنة الملك، "إنه أمر شديد الغرابة".

"نعم، لا أقول بالتأكيد إنه يعرف!" قال الظل، "ولكني اعتقد ذلك، لقد تبعتني لسنين عديدة وأطاعني، أعتقد ذلك! ولكن لتسمح لي جلالتم، أن ألفت انتباهكم إلى إنه مزهو جدا بسبب النظر إليه كإنسان، فيجب أولا أن يكون مزاج حسن لكي يجيب جيدا على السؤال، ومن ثم عليك معاملته كإنسان بالضبط".

"هذا ما أحبه!" قالت إبنة الملك. (ص 87) وتوجهت حيث طالب العلم عند الباب، تحدثت معه حول الشمس والقمر، وحول الناس، خارجهم ودخلهم، فأجابها بذكاء ودقة.



"أى رجل عساه أن يكون، هذا الذى لديه ظل حكيم بهذه الدرجة!" فكرت الأميرة، "سيكون هذا بركة لناسى والمملكة إن اخترته زوجا لى: سأفعلها!"

واتفقت إبنة الملك والظل، فى الحال على ذلك، ولكن لا أحد يجب أن يعلم عن ذلك قبل أن تعود إلى مملكتها.

"لا أحد، ولا حتى ظلى!" قال الظل، وكان له قصد فى ذلك!

وجاء بعد ذلك إلى البلد الذى تحكم فيه إبنة الملك.

"إسمع يا صديقى العزيز!" قال الظل لطالب العلم، "الآن صرت أكثر الناس سعادة وسلطة، الآن أود أيضا أن أفعل شيئا خاصا لك! ستسكن عندى دوما فى القصر، تركب معى فى عربتى الملكية، وتحصل على مئة ألف درهم سنويا: ولكن عليك أن تسمح للناس بمختلف طبقاتهم بأن يخاطوك كظل: عليك ألا تخبر أحدا بأنك كنت فى يوم ما إنسانا، مرة فى السنة عندما أظهر نفسى لتحية الناس فى الشرفة تحت أشعة الشمس، عليك أن تمكث عند قدمى كما يجب على الظل أن يفعل! أخبرك بأنى سأتزوج إبنة الملك، وسيقام حفل الزفاف هذا المساء."

"لا، إن هذا لقمّة الجنون!" قال طالب العلم. "لا أقبل هذا، لن أفعل ذلك! أن تخدع البلد بأكملك وإبنة الملك! سأقول كل شئ! بأنى إنسان، وبأنك الظل، وأنت مجرد ثياب!"

"لن يصدق احد هذا!" قال الظل، "تعقل وإلا ناديت عليك الحرس!"

"سأذهب بإحبال إلى إبنة الملك!" قال طالب العلم. "سأذهب قبلك!" قال الظل، "سيقبض عليك". وهذا ما حصل، لأن الحرس أطاعوه، لأنهم يعرفون بأن هذا ما تريده إبنة الملك.

"أنت ترتعد!" قالت إبنة الملك عندما دخل عليها الظل، "هل (ص 88) حدث شئ ما؟ لا يجب أن تمرض هذا المساء، فلدينا حفل زفاف."

"شهدت أفضع ما يمكن لامرئى أن يشهد!" قال الظل، "تصورى، إن دماغ ظلى المسكين لا يستطيع أن يحتمل كثيرا! تصورى، ظلى صار مجنونا، يعتقد بأنه إنسان، وأنا تصورى أنت، أنا ظله!"

"هذا أمر مريع!" قالت الأميرة، "حبسته بالتأكيد؟"

"أجل! لا أعتقد أبدا بأنه سيشفى."

"مسكين هذا الظل!" قالت الأميرة، "إنه تعيس جدا، من الأفضل تحريره من الحياة المتبقية له، وفى الحقيقة عندما أفكر فى ذلك، أجد من الضرورى التخلص منه سرا!"

"ذلك صعب جدا!" قال الظل، "لأنه كان خادما مخلصا!" ومن ثم أطلق ما يشبه حسرة.

"حضرتك نبيل!" قالت إبنة الملك.

في المساء كانت المدينة مضاءة بأكملها، والمدافع تطلق: ج! واجنود يقدمون عرضاً ببنادقهم. كان حفل زفاف حقيقياً! ظهر الظل وابنة الملك في الشرفة ليحييهما الناس ويهتفوا لهما ابتهاجا بالمناسبة، هوراها!

ولم يسمع طالب العلم شيئاً من كل هذا، لأنهم كانوا قد تخلصوا منه

كتبت في عام 1847

### القراءة

وودت لو أني لا أكتب أى تعليق، وأترك للقارئ أن يتعرف بنفسه على الكيانات التي تجلت في القصيدة القصة، وهي تجرى كلها تقريباً في ساحة النفس، حالة كونها تنمو، وأن يلاحظ تبادل الأدوار، ورحلات الذهاب والعودة، والساحة الداخلية، ومحاولات التوفيق وأخيراً اختفاء طالب العلم لحساب "القادِم"

قد أرجع لكل ذلك تفصيلاً لكنني أكتفى الآن هنا بإثبات ما سبقْتُ إلى الإشارة إليه.

.....

نلاحظ حيوية الحوار، ثم تجسد الظل إنساناً وبالعكس،

ثم الاختفاء والظهور،

ثم غلبة الظل متكاملًا كأنه الأصل.

قصة الظل هذه عمقت التقابل بين "روح الشعر" (كيانا حقيقياً) وبين "طالب العلم" المعلوماتي الظاهر الوضوي،

لم يخطئ أندرسن فيتمادى في الاستقطاب بين الظل الذي استوعب روح الشعر، وبين طالب العلم، ليفضل أحدهما على الآخر في مناظرة مسطحة، وإنما مضى ليجعل رحلة "الظل" رحلة معرفية إبداعية شديدة العمق دون إلزام بتنافس سطحي مع "طالب العلم".

إن رحلة "الظل" إلى "روح الشعر" لم تكن حكراً على "الظل"، فهذا الأخير يخاطب صاحبه "طالب العلم" بعد أن التقاه لقاء الند للند فيشرح له كيف أن فرصة لقاء "روح الشعر" مفتوحة لمن يريد، على شرط أن يتقدم إليها لا أن يجلس في الشرفة ينتظرها،

يقول "الظل" "لطالب العلم: "... حضرتك كنت دائماً تجلس وترنو إلى الممر، لم يكن هناك (عند الجار الغامض) ضوء نهائياً، فهناك ما يشبه الشفق، وكل الأبواب كانت جميعاً مفتوحة على الآخر على طول الصلوات والقاعات..".

خيل إلى أن اختفاء طالب العلم في النهاية لم يكن لحساب الظل المتأنسن، وإنما لحساب روح الشعر

وصلني أيضاً أن أندرسن قدم فرصة الإبداع تكاملاً باعتبارها فرصة لكل الناس دون استثناء. هي ليست حكراً

على صفة موهوبة إذن،

يدور الحوار بين طالب العلم وظله بعد عودته من رحلته المعرفية الواعدة بتخليق ذاته (ذواته معا) وقد تجسد إنسانا، يدور الحوار بمنتهى الاحترام التلقائي، ثم بناء على إصرار "الظل" على أن يخاطبه "طالب العلم" بـ "حضرتك..." حتى لو لم يفعل نفس الشيء بالمقابل. الاستقطاب المباعدي بين المتحاورين لم يكن مطروحا، فالظل لم يكن هو "حالة الذات الطفلية الحرة المنطلقة" (حسب نظرية التحليل التفاعلاتي) مع أنه كان يمثل الحرية والبحث عن المعرفة الأخرى، كان تخيفا لكنه يافع تماما، وقوى، وواثق من نفسه، ومطالب بمقوقه برغم شكواه من أن "لحيثي لا تنمو كما يجب" إشارة إلى أن النضج لم يتم.

الاحترام هنا ليس التبجيل التقليدي بقدر ما هو الاعتراف المتبادل

جدس إبداعي فائق يدرك أندرسن، فيبين كيف أن التكامل بين الذات إنما يتم بالتصالح والمواكبة، لا بالتبادل المستقطب، ولا بالتسوية المائعة، حتى قال طالب العلم للظل ذات يوم وهو يرافقه بناء على اتفاق طيب "بما أننا أصبحنا رقيقين سفر كما نحن الآن، ونحن أيضا قد نشأنا منذ الطفولة معا، ألا نشرب نخب رفع الكلفة بيننا، إنه أمر أكثر ألفة".

في نفس الوقت يعلن حدس أندرسون كيف استطاعت الأميرة أن تنتبه إلى أن "الظل" حين جاء إلى المصح لم يحضر "حتى.. يجعل لحيته تنمو، ولكن أرى السبب الحقيقي أنه بلا ظل"، (بلا هوية إلا يمكن يكملها) فننتذكر كانديرا في "الكائن الذي لا تحتمل خفته" وبدرجة أقل نتذكر فتحي غانم في "الرجل الذي فقد ظله".

أنظر أيضا ما ورد على لسان "الظل" في عبارة عابرة وهو يحاور صاحبه "طالب العلم"، فيكشف عن دور الإيقاع الحيوي اليوماوي **Circadian** جنبا إلى جنب مع "الأزمة المفترقية": **Cross-Roads crisis** [3]3 يقول لصاحبه بعد عودته "... أقول لحضرتك، كنت هناك، هل بإمكانك أن تدرك ما يمكن أن يُرى؟... عرفت طبيعتي أيضا وما خلقت عليه، علاقتي العائلية بروح الشعر، أجل، عندما كنت مع حضرتك في ذلك الزمن لم أفكر بذلك، ولكن بشروق الشمس، بغياها، كما تعرف حضرتك، صرت كبيرا بشكل غريب، على ضوء القمر كنت أوشك تقريبا أن أكون أوضح من حضرتك، لم افهم وقتها طبيعتي - أدركت ذلك في الممر الموزع، صرت إنسانا، خرجت راشدا".

الراشد، المتكامل الذي قال إريك برن أنه غاية النمو توليفا بين الذات الأساسية الثلاثة لم يتضح أبدا حتى باعتراف صاحب النظرية نفسها إريك برن، أندرسون هنا يشير إليه بسلاسة دون أن يجتزله.

نعقب نحن أن المفروض أن هذا الراشد المتكامل يظل مشروعاً نامياً فعلاً لا يتكامل أبداً كما ذكرنا في المقدمة.

وبعد

أمامنا سيبلان للتعليق على مثل هذا الإبداع الكاشف:

نحن إما أن نتكلم عن خيال المؤلف وحدسه وشاعريته التي سمحت له بهذا التوليف الكاشف المضي وكأن المسألة خيال وإبداع منسوج.

وإما أن نستلهم من هذا العطاء أن داخل هذا المبدع من الكيانات المرنة القادرة على التحرك في الزمان نكوصاً إبداعياً أو في المكان جدلاً آتياً، وإلى الوعد توجهها نمائياً، وأن هذا هو الذي أتاح أن يصل عمق فكرة النمو قبل أن تُنظر علماً بقرن أو اثنين.

الساحة - في القصة-كلها هي في الداخل حين يتجلى تركيب النفس البشرية، وحركيتها، ونبض كياناتها في عملية التكامل المتصاعدة أبداً.

#### الخلاصة

إذا كنا قد تحركنا نحو قبول فكرة (حقيقة) التعدد من خلال حركيتها، وليس رصدها أو صفها، وكنا قد فعلنا ذلك ونحن نرصد حركية الإبداع عامة، ثم حركية مسار النضج الممتدة (من خلال عينة للإبداع عند الطفل) فإنه بقي أن نربط مفهوم التعدد بفاعلية ممارسته -وليس بضرورة الوعي به - بشكل براجماتي في العلاج أو النمو أو الإبداع بمختلف تجلياته بما في ذلك حركية الإيمان.

## 102- المهدرات العصرية والمقاتيم السرية

عن كتاب وفيلم " السر "  
The secret

## تمهيد

في يومية 23 نوفمبر 2007، في ردى على أحد ضيوف حوار الجمعة (أ.غنيم) وهو يسألني عن التنمية البشرية، والبرمجة اللغوية المعاصرة. أشرت إلى كتاب، وفيلم، وبدعة ما يسمى "السر" The secret وقانون الجذب The Law of Attraction قلت وأنا أرد عليه: "... فزعت فزعا شديدا من لعبة بيع الأوهام هذه، تلك اللعبة التي وصلت إلى درجة تكاد توازي ترويح المخدرات، أى والله، ثم أردفت: .... لا أنكر يا سيدى أننى عثرت على بعض الحجارة الخام الملقاة هنا وهناك بين أكوام القش الهشة هذه، تلك الأكوام التي يسوقونها تحت هذه الأسماء، وأنا أكاد أكون متأكدا أنهم لا يعلمون شيئا عن أن بعض هذه الحجارة قد تكون من الأحجار الكريمة، لو أحسن الكشف عنها بطريقة أخرى لهدف آخر غير التجارة وبيع الأوهام .

أذكر أن ما وصلني بعد ذلك من بعض المحاورين، وأيضا من نقاشي مع حفيدي عمر الذى انبهر جزئيا بما أورده الفيلم ، أنه "وكيف كان ذلك"؟ أعنى كيف أن ثمة حجارة كريمة يمكن أن نعثر عليها في كوم القش (أوراق البانجو الجافة)، وكيف نكتشف أنها حجارة كريمة؟

هذا هو موضوع هذه اليومية

## مقدمة

يبدو أنه من الأفضل جمع الأحجار المتناثرة في كوم القش الذى يغرى بما لا يمكن مقاومته (المال والحب والرفاهية والحاجات دى) ، تحصل عليها بمجرد أن "تريدها جدا، وتركز في ذلك، وتصر على ذلك، فتأتى إليك بالسلامة".

ولكن دعونا قبل التمدادى في السخرية التي سبقت إلى قلبي دعونا نتعرف على بعض المعلومات التي اقتطفتها من "النت"، وقد كتبت بتاريخ: 7 مايو سنة 2007 يقول المقتطف:

- "لا يوجد سر في "السر"،  
 إن الكتاب والفيلم يقرران أن :
- قانون هذه الظاهرة الأساسي هو: إن أفكارك هي التي تحكم الكون .
  - إنه من خلال قانون الجذب، عليك أن تدع رغبتك تتجلى حاضرة تماما كأنك تشير إلى طلب محدد من قائمة معروضات (كتالوج) .
  - عليك أن تعرف أن ما تريده " هو لك" في نفس اللحظة التي تطلبه فيها
  - تريد أن تجد نفسك تعيش في مجوحة (وفرة) فليس عليك إلا أن تجدها إليك.
  - إنها القاعدة التي تنجح كل مرة، لكل واحد دون استثناء.
  - الإغراء واضح: إنس التعليم، والجهد، والأداء .
  - كل ما تطلبه من المال، إلى القوة، إلى حذاء يريح قدميك: هو لك، ببساطة، بمجرد أن تريده بدرجة كافية.
  - هل وسط ذلك يمكن أن نجد حجارة كريمة بأى صورة من الصور؟.

لكن دعني - قبل أن أجيب- أنكد على حضرتك بتصوير بطيء ، لتتقمص صورتين كما فعلت أنا شخصيا، وأنا أشاهد مقطعان من الفيلم هكذا:

#### الصورة الاولى:

أنت عامل بناء تسكن في حجرة على السطح في عزبة القصرين في غمرة، الساعة التاسعة مساء، ورجلك في الجيس لانك وقعت من على السقالة منذ أسبوع، والمقاول لم يكن مؤمنا عليك، الأولاد (ستة) يذاكر الأول والثاني في المطبخ (لا يوجد مطبخ لكنه يسمى كذلك) والثانية والثالث، ناموا بعد أن يئسوا، والرابعة والخامسة يبكيان من الجوع، عليك أن تصدق ما جاء أعلاه، (في موضوع السر)، وأن تعرف أن أفكارك هي التي تحكم الكون، لو سمحت ركّز بكل ما عندك من حسن نية ، وشديد عزم، ويقين بالاستجابة، ركز على خمسة أرغفة بلدي، ليست ساخنة بالضرورة، لم يحدث شيء؟ هي غلطتك، لو سمحت ركز أكثر؟ بكاء الأولاد يزعجك؟. ماذا يحول دون أن تركز أكثر؟ إنتظر قليلا، ها هما قد ناما ربما يأساً مثل الآخرين، عد فركز كل أفكارك على عشرة أرغفة ، فالأسرة من ثمانية بحسابك وحساب أمهم ، شاور بوعى بإصبعك إلى ما تريد (في الهواء إلى الكون) حتى لا تلتفت هنا أو هناك، إشحذ فكري ، ردّ ما تريد، لا تشغل بالك بما لا تريد، ولا بحقك في التأمين، ولا بنذالة المقاول الذي نسيك حتى لم يزرک ليقول لك سلامتك، ولا تسمح بندمك أن يعاودك على أنك لم تحجز من أجرك ما يكفي

لهذا اليوم، (مع استحالة ذلك "إجذب" من الكون بأفكارك الأرغفة الواحد تلو الآخر، ها هو الباب يدق، أحدهم جاء بالأرغفة، أو لعله جاركم جاء يسد ما استدان منك منذ ثلاثة أشهر، خمس وثلاثين جنيهاً بالتمام، أو لعلها بنت خالة زوجتك عرفت ما جرى، فقدمت دور زوجتك وفضلتها على نفسها لتقبض "جمعية" هذا الشهر بدلا منها، هكذا تحقق مفعول "السر" سوف تأخذ بعضاً من أي من ذلك، وترسل زوجتك إلى المخبز الذي يجواركم لتحصل على ما تريد، لا-لا إبعد هذه الأفكار الأخرى، وانس الطابور الذي حكى لك زوجتك عنه هذا الصباح، فهذه أفكار سلبية تمنعك من التركيز الآن، وأيضا لا تنشغل باحتمال أن الطابور قد انفض دون أن يحصل من كان يقف في نهايته على الخبز الذي جاء من أجله، هذه أفكار سلبية، حتى لو حدث ذلك فليس لأن المخبز خلس ما فيه قبل أن يصل إليه الدور، ولكنه بسبب خطأ هؤلاء الذين كانوا في آخر الطابور، إن أياً منهم لم يركز على الأرغفة التي قرر أن يحصل عليها، بل وراح يسخط من طول الطابور، أو لعله تجرأ فلعن الحكومة، وكان الأولى به أن يعرف أن أفكاره هي التي تحكم الكون، وأنه بدلا من الضجر والسخط وهذا الكلام الغبي، كان عليه أن يستدعي "قانون الجذب" بكل تركيز، كان القانون سوف يقصر طول الطابور، أو على الأقل يزيد كمية الخبز، حتى إذا جاء دور هذا المخطوظ بممارسة توصيات السر، وجد طلبه تحت بصره في نفس اللحظة (أو بعد نصف ساعة، لا يضر)، تفيق من أفكارك هذه وتذهب لفتح الباب، فلا تجد أحداً، هل كانت خبطة عشواء، أم أن أذنك التقطت أصواتاً لا وجود لها، ترجع فتجد الطفلين قد لحقهما الدور، وناما هما كذلك، ناما جائعين تتساقط الدموع من عينيك فتحاول أن تخفيها عن زوجتك، لم يحدث أبداً أن رأت زوجتك دموعك، هي أيضا تحاول أن تخفي دموعها عنك، وهي تغطي الأولاد ببقايا البطانية القديمة

الذنب ذنبيكما ، لم تصدقا "السر"،

ولم تحسنا استعمال قانون "الجذب"

### الصورة الثانية:

حضر خيالك معي، لو سمحت

لا تستطيع؟

لماذا؟

ما زالت الصورة الأولى تشغل بالك؟.

أنت غاوى نكد ، لو سمحت ، لو سمحت، نعم، هكذا استعد، نعم، هكذا، شكرا .

أنت الآن شخص أمريكي جدا، تريد أن تحصل على مائة ألف دولار، (يعنى ماذا؟ أنت مالك!) ما عليك إلا أن تريدها جدا، نعم، هكذا ، الآن : عليك أن ترسل أفكارك إلى الكون لتتحكم فيه ليجيب طلبك، تركز أكثر لو سمحت ينجذب طلبك إليك، تهتدى إلى طريقة تسويق أربعمئة ألف نسخة 400000 من كتاب ألفته وفشلت أن تسوقه كما ينبغي، لكنك لما ركزت جدا جدا،

على قرارك ورغبتك في الحصول على 100000 مائة ألف دولار جعلك هذا التركيز بفضل قانون الجذب تهتدى إلى مجلة إعلانات أثناء تسوقك في سوبر ماركت ماء، فتنتشر فيها إعلان عن كتابك هذا وأنه بربيع دولار لا غير، ثم تناقشك صحفية انتبهت للإعلان، فتكتب مقالا عن كتابك، فتباع كل النسخ في وقت قياسي فتحصل على المائة ألف دولار التي ركزت عليها لأنك تريدتها ، أى والله، فتقول لك زوجتك وهى تعد الأوراق الجميلة ذات الرائحة الخاصة (نعم للأوراق رائحة: ولكل عملة رائحتها المختلفة عن رائحة العملة الأخرى راجع يومية الألف تدرك مثل العين أحيانا) تقول لك زوجتك وهى تملأ خياشيمها بالرائحة دون أن ترفع رأسها إلى أعلى، تقول لك: ما دام الأمر كذلك هيا نركز على مليون دولار، فتركز، فيشاء الكون السميع العليم أن تحصل عليه بسر الجذب بالسلامة " .. الخ.

وخلص.

(هذه القصة منشورة في الكتاب، وموجودة في الفيلم، ومثلها كثير، وصاحبها هو الذى يحكيها وعلى وجهه ابتسامة لم أفهم معناها بصراحة)

أما القصة الأولى فهى موجودة هى الأخرى لكنها ليست منشورة، لأنها مكررة، ليس فيها جديد، ويمكنك التأكد من مصداقيتها في أى مكان مثل عذبة القصيرين، مثلا: البساتين، حارة السكر واللمون، درب شبانة، كفر الاقرع ، .. إلخ إلخ.

\*\*\*\*

من حقك أن تسألنى الآن:

طيب ، إذا كان الأمر كذلك بعد هذه التعرية الصارخة، فهل يمكن أن نجد وسط هذا العبث أية أحجار كريمة كما تقول؟

قبل أن أجيب ، دعنى أذكر لك بضعة أرقام ذكرتها نفس الكاتبة التى اقتطفنا كلامها من النت في البداية، أرقام عن المدى الذى وصل إليه انتشار الكتاب

هذا الكتاب هو من مجموعة "أوسع الكتب انتشارا"، يقول الناشر (سيمون شستر Simon Schuster) إن الكتاب **يبيع مائة وخمسين ألف نسخة أسبوعيا**، وأن "الـ دى فى دى" DVD باع على الأقل مليون ونصف مليون قرص (طبعا غير الذى سرقت من ورائهم)، وأنه أكثر الكتب مبيعا في أستراليا، وبريطانيا وأيرلندا، وأنه ترجم لثلاثين لغة

طيب

حلال عليهم، ناس رايقة؟

ونحن ؟

فوجئت أن حفيدى عمر (18 سنة) ، وهو صديقى كما أشرت من قبل في أكثر من مناسبة، أقول فوجئت أن عمر ، رأى الفيلم، وأنه معجب به ، ويصدق أغلبه ، قلت له مازحا أو منبها، هيا يا رجل ركز لنا على ما يجرى في العراق، لتتخلص



من بوش، ومن كل ما ترتب على وجوده في هذه الدنيا هو ومن يمثله، نبهى أنه لا، ذلك أن قانون الجذب (الخاص "بالسر") يمنع التركيز للتخلص من أى شئ أو أى شر أو أى شيطان. لا ينبغى أن يوجه التركيز للتخلص من السلي، ولكن فقط بسمح بالجذب لكل ما هو إيجابي للشخص، وبنص التعليمات فإن "الحركة المضادة للحروب زادت من الحروب" كذلك لا ينبغى أن يتوجه التركيز لإبذاء الآخر، ولكن للحصول على ما تريد لك أنت فقط.

أقفلت باب النقاش، وكنت على وشك أن أكتب ما أكتب الآن، وقلت أرد عليه وللناس.

ثم يبدو أن عمر، وهو طالب بالجامعة الأمريكية، قد لا يمثل نفسه، بل يمثل جماعة لا أعرف حجمها من الشباب، لكن يمكن أن أستنتج ذلك بعد أن طلبت منى إحدى المعدات الفاضلات في قناة "أوربت" أن اسجل معها حول هذا الموضوع، وبصراحة أنا لم أكن أعرف شيئاً عنه وسط انشغالاتي، ولكن بمجرد ان وصلني طلبها استمهلتها في الاستجابة حتى أتعرف على هذا الكتاب، وهذه الظاهرة، وهأنذا أفعل.

### شبابنا في قاع البحر

نحن نلوم الشباب الذين يدفعون الآلاف مقابل أن يموتوا غرقى على سواحل الأعاجم غوصاً إلى عمق البحر، وعلى الجانب الآخر هذا هو حفيدي وصديقى يتصور أنه يمكن أن يحقق ما يريد بممارسته قواعد وقانون السر، ولعل المفتى - غفر الله له - كان يريد من الشباب الطماعين أن يعرفوا "السر" قبل أن تقتلهم أطماعهم، كان يكفي أن يجلس أى منهم في داره ويركز على ما يريد، مثلاً وظيفة كاتب محكمة في الوادى الجديد، أو أمين مساعد في مخازن ورش غمرة، شريطة أن يتقن طقوس "أن يريد ما يكون، فيكون"، لا أن يرفض ما لا يريد كما أفهمنى عمر، هذا هو السبيل المضمون للسلامة، والكرامة معاً، بدلا من أن يجسر قلب أمه عليه هكذا، وحتى لو كان هو مستغنيا عن حياته التى لا تساوى شيئاً بنص الدستور، فما ذنب أمه؟

المهم .

بعد كل ذلك: هل يمكن أن نجد وسط هذا الكوم من الأوهام والأحلام والاختزال والتخدير أحجارا كريمة كما أزعم.

### الإجابة أن : نعم

قالوا وكيف كان ذلك

قلت انتظروا قليلا وهيا معى أولا إلى استرجاع خفيف خفيف (فلاش باك) لحكاية السعادة التى سبق أن تكلمنا عنها .

### عودة إلى "سعادة" برتراند راسل

حين نشرت يومية موجزة عن كتاب انتصار السعادة لبرتراند راسل تصور القراء أننى غير موافق أن يكتب برتراند راسل، وهو من هو، عن هذا الموضوع بهذا الشكل، وقد حاولت أن

أنفى ذلك، أنفى اعتراضى، ويبدو أننى لم أُنجح، فراسل لم يكتب عن "انتصار السعادة"، كما ترجم العنوان خطأ، السعادة لا تنتصر، ولكنه كتب عن "اقتناص السعادة"، كلمة Conquest تعنى اقتناص ، وليس انتصار Victory (وقد أشرت سابقا أننى لم أعثر على الكلمة المناسبة بدلا من انتصار، وهأنذا عثرت عليها وأنا أتناول معالجة موضوع اليوم).

سأبدأ برحلة البحث عن الأحجار الكريمة وسط كوم أوراق البانجو الخافة ، هذه بأن أفسر الإيجابيات التى وصلتني من توصيات ونصائح برتراند راسل، لعلنى أُنجح فى النهاية أن أجد حلا لبعض ما جذب الناس إلى "هذا السر".

فمثلا سوف أحاول أن أقرأ "قانون الجذب" الخاص بالسر على أنه نوع من اقتناص السعادة من خلال شحذ التلقى الإيجابي، ذلك أننى فهمت من مجمل كتاب راسل أنه يقصد بالاقتناس هذا النوع من الانتقاء الجميل، والاقتنام الطيب، لما يمكن أن يفرحنا بدلا من التركيز على ما مضى، وما لا حل له، لاستحالة استعادة نفس الأحوال التى أفرزته.

هذا مجرد فتح كلام. (وسوف أقرنه ببعض قواعد السر لاحقا)

حين شغل راسل أكثر من نصف مقدمة كتابه (صفحة ونصف) باقتطاف من شعر "والْت وِيتْمَان" نبهت إلى ما يجدر بنا أن نأخذه من إيجابيات هذا المقتطف، وما ينبغى أن نحذر من التسليم له دون تحفظ.

من تلك الإيجابيات أن من أهم ما يعطينا عن اقتناص السعادة هو

- العويل على ما فات،
- وتأجيل الفرحة،
- والشعور بالذنب،
- والحرص على امتلاك ما لا نحتاج،

أما أهم ما ينبغى أن نحذر منه فهو أن تكون سعادة الحيوانات هى مثلنا الأعلى،

فمنذ اكتسب الإنسان الوعى، ثم الوعى بالوعى، أخذ مقلبا إذا هو لم يتمكن من حسن استعمال هذا المكسب

وقد أنهيت نقاشي لهذه القضية بطرح بعض الخطوط العامة التى سوف أعيدها (لأننى سوف أناقشها فى هذا السياق الجديد)، وهى كما يلى :

1- إنه لايجوز الحديث عن السعادة أصلاً، (أو البحث عنها)، فهذا فى ذاته : ضدها.

2- إن الوعى بها (أو بأى مسقى باسمها) هو نتاج جاني حياة قادرة على إفرازها من ورائنا، بما يسمح لها أن تتسرب إليك من باب تركته مفتوحاً دون قصد .

3- إنها حركة نابضة، عميقة وغامضة، وهائلة وساحرة دون إعلان ذلك، وهى لا تتعارض مع الألم الحى، والخزن الخلاق

- 4- إنها متعددة التجليات بتعدد التباديل، والتوافق مع سائر مستويات وجود الفرد وتقلباته، لكنها في النهاية حضورٌ كلىٌ مشتمل
  - 5- إنها مسامية (تسمح بالدخول) انتشارية (يستحيل حبسها فيمن يتمتع بها وحده لنفسه)
  - 6- إنها نمائية (من النمو)، إذ توأكب وتدفع إلى ما بعدها، والذي هو هي، لكنه مختلف
  - 7- وهي غير حاضرة بما هي إلا "الآن جداً"، "الآن فقط"، "الآن الممتد أبداً"،
  - 8- وهي القادرة على أن تملأ الوقت بما يستحق أن يُملاً به، بغض النظر عن نوع محتواه
  - 9- وهي غير قابلة للتعريف، ولا حتى بأنها ضد ما هو عكسها!!
  - 10- وهي ما تبقى فيك رغماً عنك مما سبق ذكره، ما تبقى من كل ذلك، مما هو ليس أياً من ذلك!!
- ثم قلت استدراكاً :

لو أن السعادة هي كما ذكرنا الآن، فهي "ليست السعادة" التي يتحدثون عنها

ولو أنها "السعادة" فعلاً فلن يجرؤ أحد أن يدعى أنه سعيد.

اقتراح عملي (لا تأخذ به من فضلك) :

"تصورتُ أنه ...، أننا... يمكننا أن نكتشف، بما نحن فيه "الآن"، دون أي جهدٍ إضافي، أن كل ما ذكرَ سالفاً هو موجود لدى أي واحد منا، حالاً،

وأننا لا نشعر به لأننا لم ننتبه إلى أنه يدخل فعلاً من الباب الذي نسينا أن نغلقه (بند 2)،

وأن كل ما علينا هو أن ننتبه إلى هذا الباب المفتوح أصلاً،

لعلنا نستقبل منه بعض كل ذلك،

برغم كل ما هو ليس كذلك!!".

\*\*\*

هل يوجد وجه شبه مع ما نبحت عنه في مسألة "السر".

(انتظرنا في يوميات لاحقة).

من هنا - أيضاً- نبدأ

حين راجعت هذا الذي جاءني هكذا من فرط الحب والغيب اللذان أثارهما في كتاب "راسل"، قلت ليكن هذا هو مدخلي إلى محاولة اليوم :

"اكتشاف الأحجار الكريمة في كوم قش ورق البانجو" وسوف يكون هذا هو موضوع يومية الغد.

في الأجزاء التالية أرجو أن نعثر على كل من (كعينات):

• إيجابية العيش في "هنا والآن".

• وعمق الحق في "العوزان".

• ومعنى حق الدعاء.

• ومدى حق الاستجابة.

كما أرجو أن نتعلم كيف نضئ الضوء الأحمر أمام كل من (كعينات):

• اجترار الألم.

• قىء الذكريات الواخزة.

• التأجيل العيى حتى تحت زعم المشيئة دون الوعى بحقيقة المشيئة.

وغير ذلك من هذا وذاك.

#### الخلاصة

هل ننتهى في نهاية النهاية إلى معرفة كيف يمكن:  
 العمل على تكريس اللحظة بما هي لما هي (ما أمكن ذلك)؟  
 هل تكون هذه هي "اللؤلؤة" التي نبحث عنها؟  
 وهل ثم ملامح لها وسط قمم قش ورق البانجو الجافة (السر)؟  
 وهل نستطيع أن نخرج منها بنتائج ظاهرة، لسلوك محدد؟  
 هذا كله هو بعض ما نأمل في تغطيته لاحقاً.

الإثنين 12-12-2007

## 103-أحجار كريمة وأشياء أخرى وسط كومة قش

## مقدمة

وعدت أمس أن أقدم إيجابيات البدعة الجديدة المسماة "السر"، برغم ما قدمته من نقد قاس وتعريّة ساخرة لهذه البدعة، وحين رحلت أبحث عن هذه الأحجار الكريمة، ملقاة داخل كومة القش أو مدفونة في جوف الحجارة الحجارة، اختطت الأحجار الكريمة ببقايا الزجاجات المكسورة بعلب السلمون برائحة المعسل مجبات المسابح ببقايا شراشيب، سجاجيد الصلاة، بأوراق زهور نادرة، ببذور نباتات للزينة، بأوراق نباتات طبية، بما لا أعرف.

حاولت الاكتفاء بانتقاء ما يفيد الناس فقط بهدف أن أظهر بعض الجوانب الجديدة في الموضوع لعلها تنبه الناس إلى "حقهم في إيجابيات عطاء اللحظة الراهنة هنا والآن"، وسط أمواج التهريج، والتفتيت، والاعتراب والتأجيل، والحسابات الخائبة، ..... فلم أستطع.

لم أجد مفرا من الانتقائية شبه العشوائية، دون أن أزعم نفى تهمة التحيز.

وهذا بعض ما كان صغته فيما يشبه حوار الجمعة لعله يفيد:

(التاجر الشاطر- ربما حسن النية):

... هذا السر يعطيك كل ما تريد

السعادة والصحة والغنى

يمكنك الحصول على، أو أن تفعل، أو أن تصير: أي شيء تريده

يمكننا أن نحصل على أي شيء نختاره

لا يهمني مهما كان كبيرا

(واحد مصرى طيب يقظ):

أي شيء ؟؟؟ ؟؟ أي شيء !!! ؟

يا رجل حرام عليك.

لا تعليق أكثر من ذلك.

!!!!

(واحد مصرى طيب يقظ) :

صحيح، لكن ليس لهذا العرض الذى تلوح به، أو حتى تتعلمنى دعنى أقول: ليس لهذا الغرض فقط، إن نفس هذه المعلومة هي القادرة على أن تفتح باب الإبداع، وباب النمو المفتوح النهاية، وباب الإيمان بالغيب، فلماذا تختزل السبيل إلى كل هذه الآفاق، بهذا التبسيط الاستسهالي، للحصول على قصر، أو آلاف دولارات، أو سيارة حديثة، أو يخت بنسائه وغلمانه؟.

آسف، أحاول ضبط سخريتي بلا طائل، عذرا، وهيا قل لى ما هو طبيعة هذا السريا سيدى؟

(التاجر الشاطر- ربما حسن النية) :

السر هو -قانون الجذب-

كل ما يأتى إلى حياتك إنك أنت تجذبه إلى حياتك وهو ينجذب إليك بسبب الصورة التى تتمثلها فى مخيلتك إنه ما تفكر

**انظر:** مهما يحصل فى فكرك

فإنك تجذبه إليك

(واحد مصرى طيب يقظ)

(تعلمنا صغارا العكس، أننا نحن الذين ننجذب إلى الأرض بجاذبيتها، أنت تشير إلى شئ آخر، تقول نحن نحقق أفكارنا فى الكون عيانا بيانا، لنجذبها إلينا هذا فتح جديد. الجذب هنا نحن مركزه، لا مانع، ليت ذلك يكون، ولكن ألا تخشى سيدى أن تزيد بذلك الإنسان غرورا بنفسه، قبل كوبرنيكس كانت الأرض هي مركز الكون، ثم تواضعت وتراجعت، فهل هذا السر يأتى الآن يعيد للإنسان تمركزه ليدور الكون حوله يجب طلباته؟

ثم أن "يكون التفكير، بل التخيل هو الذى يجذب"، هذا موقف يغير الأمور جذريا.

من حيث المبدأ أنا لا أمانع أن يكون الخيال واقع آخر، لكن حكاية ما يحصل فى فكرك فإنك تجذبه تحتاج ملاحظة:

التفكير (بالمعنى التقليدى) لم يعد سيد أدوات معرفة الحقيقة، تراجع حكاية "أنا أفكر فأنا موجود"،

التفكير الذى يمكن أن يحقق بعض ما يدعيه هذا "السر"، أنا لا أرفضه كله، أتصوره نوعا آخر من النشاط المعرفى، لا هو حل المشاكل Problem Solving كما يعرف التفكير عادة، ولا هو الخيال التجريدى،

التفكير الذى يمكن أن يخدم فكرة العلاقة مع الكون هو نوع أفضل من النشاط المعرفى إذ يساهم فيه الجسد والوجدان والعقل معا،

مسألة أنت تجذبه وهو ينجذب إليك هي أيضا بها بعض الإيجابية من حيث المبدأ، وليس بمجرد أن شيئا في مخيلتك يتحقق، لو رجعت إلى تعريف الفطرة (يومية 11/4 "الفطرة، والقشرة والانشقاق") بالحركة، الضامة إلى غايتها، أو رجعت إلى شرح تعدد الذوات بالحركة الممتدة إلى تعدد مستويات الكون (يومية 9-12 "تعدد الكيانات وحركية الإبداع")، إذن لعرفت اعترافي باحتمالات جيدة واحترامى لهذا الاتجاه،

كل هذه احتمالات تشير إلى حتمية وصحة وجمال التأكيد على العلاقة بين الإنسان والكون، وبين الإنسان والإنسان. تدريبات التواصل مع الطبيعة بالإبداع، والتأمل، والعبادات، هي كلها تقع في هذا النطاق. اختزالها إلى مثل ذلك الذي تقول يذكرني بموجة التأمل التجاوزي (مهايشي) Transcendental Meditation التي انتشرت في السبعينات، لقد جذبتها شخصيا، جاءنا شاب أمريكي ذاهل النظرة، بالغ الحماس، طيب الحضور، مبعوثا من السيد "مهايشي الهندي" الذي أنشأ معهدا لهذا التأمل في "سويسرا"، وأخذ يدرّبنا (أنا ومجموعة صغيرة ممن أراد التجربة) على هذا التأمل، وأعطى لكل واحد منا كلمة السر (الشاكرا) وثلاث ساعة في الصباح. وثلاث ساعة في المساء، هات يا تأمل، وهات يا "شرنج" (هذه كانت كلمة السر الخاصة بي)، وعرفت ما يكفي أن أضع الأمور في نصابها، وانتهى كل ذلك إلى ما جعلني أنا قشك هكذا!

أنا أوافق على قانون الجذب المتبادل (لا الجاذبية السلبية ولا الجذب إلى فقط) إذا كان يعنى قانون تنظيم الإيقاع ما بين الكون والإنسان،

هذا القانون "ضبط الإيقاع الحيوي"، هو بمثابة "نوتة" اللحن الوضلي لثالوث الإبداع - التأمل - العبادات

(للفكر/المعرفة) (بالمعنى الشامل السابق ذكره) أن ينشط في هذه المنطقة - منطقة ضبط الإيقاع الحيوي - لصقل هذا اللحن بيننا وبين الطبيعة وتطويره، لكن ليس للحصول على علاوة بآلاف الدولارات، أو بناء فيلا أو شراء يacht.

يا لله عليك ألا ترى أين هؤلاء الذين عندهم مثل ذلك ؟

(التاجر الشاطر- ربما حسن النية) :

بماذا تعلق أن 1 بالمائة من البشر يكسبون حوالى 96 بالمائة من جميع النقود هل تظنه صدفة؟

إنه ليس بالصدفة

إنه مصمّم كذلك

إنهم يفهمون شيئا

يفهمون السر

(واحد مصرى طيب يقط) :

لا يا شيخ !!!

يا أحمى حرام عليك !

بماذا أعلل ؟ ؟ ؟ ؟ ؟  
يا أخی لمن تقول هذا الكلام؟

لا طبعا ليس صدفة ، أو افقك مائة في المائة ، ليس صدفة  
كان الشعراء العرب أرحم منك يا رجل حين يسخرون شعرا  
من مثل ذلك، كانوا ينصحونك ألا تفكر في سب ما وهبه "ملك  
الملوك" لمن له مثل هذا الحظ السعيد، كانوا يقولون:

**ملك الملوك إذا وهب                      لا تسألن عن السبب  
الله يفعل ما يشاء                      فالزم حدودك بالأدب!!**

وكنا ننتبه إلى تحويه هذه السخرية من دعوة إلى رفض ذلك،  
ولا نلزم حدودنا لا بالأدب ولا بقلّة الأدب، ثقةً بعدل ربنا،  
لأن ملك الملوك لا يهب اللصوص على حساب الجوعى ، وحين رحنا  
نستغفر الله وننزّهه عن هذا الظلم، كان علينا أن نبحث عن  
إجابة للسؤال الذى طرحته سيادتكم، " **بماذا تعلل أن واحد  
بالمائة 1 % من البشر، يكسبون حوالى 96 بالمائة من جميع  
النقود، هل تظنه صدفة؟**

ووجدنا أنه ليس صدفة طبعا .

بعد أن نرّهنّا ربنا ملك الملوك أن يكون مشتركا معهم في  
مثل ذلك، جاءتنا الإجابات أسهل مما تفترضه يا سيدى، ومع  
أننا لا نعرف إلا الإجابات الظاهرة في السياسات المعلنة، إلا  
أن الإجابات الخفية ستكون في نفس الاتجاه، على ألعن.

**من الإجابات الظاهرة يا سيدى التى تثبت أنها ليست صدفة  
مايلي:**

السبب، يا سيدى، هو توحش تلك الحروب التى يديرها السيد  
ديك تشينى ومن مثله، بواجهة السيد دبلويو بوش، على خلفية  
الحكومات الحقيقية من الشركات اياها التى تستولى على البترول  
خلوطا بالدماء البشرية، لتحسين جودته!!

السبب، يا سيدى، هو شركات الدواء التى جعلت من  
العلماء **بروليتاريا العصر الحديث**، فراخوا يفصلون  
النظريات العلمية، بوعى أو بغير وعى، لتخدم مكاسب هذه  
الشركات لا مصلحة المرضى، ولا أخلاق وشرف الأطباء الضحايا  
والمشاركين معا .

السبب، يا سيدى، هو غياب العدل، وغياب الوعى، وتغييب  
الله الحقيقى، والذهول المبرمج لصالح هذا الـ 1% من البشر.

**تقول لى بماذ تعلل هذا؟**

حرام عليك يا شيخ، أنا لم أتكلم عن المافيا وتجار المخدرات،  
فهم ليسوا أخطر ممن ذكرت، لعلك تعرف أنت ما يركزون عليه  
بطرفهم التى يخفونها عنا وعنك، أم عندك خير عن سرهم .؟

ولكن خلنا فى هذا السر الأيسر وزدنا فى الحديث عنه، ما  
هو بالضبط؟



**(التاجر الشاطر- ربما حسن النية) :**

أبسط طريقة للنظر إلى "قانون الجذب"- هي إن تخيل نفسى  
أنتى مغناطيس

وأعلمُ أن المغناطيس يجذبُ إليه

يقول -"قانون الجذب"- أن الشبيه يجذب الشبيه

**(واحد مصرى طيب يقظ) :**

ليكن،

إلا أن ما وصلنى من حكاية أنتى مغناطيس هو شىء سلبى حتى  
لو جذبت إلى مال قارون، ثم ما حكاية الشبيه يجذب الشبيه،  
أين الاختلاف للجدل؟ أين التفاعل للنمو؟ ليس فقط بين البشر  
وبعضهم، بل بينى وبين الكون نفسه؟

برجاء مزيد من الإيضاح حول هذا القانون أو المبدأ؟

**(التاجر الشاطر- ربما حسن النية) :**

يكن تلخيص هذا المبدأ (مبدأ الجذب) بثلاث كلمات بسيطة  
الأفكار

تصير

أشياء

ما لا يفهمه غالب الناس هو أن الأفكار لها ترددات  
كل فكرة لها تَرَدُّدُ

يمكننا قياس الفكرة

**(واحد مصرى طيب يقظ) :**

ربما يكون هذا صحيحا ، لا مانع عندى، لكن فى نفس  
اللحظة، نفس الثانية، توجد عند أى واحد منا، أفكار  
كثيرة ، لها ترددات مختلفة، والأفكار الشعورية ليست أكثر  
الأفكار قوة فى الترددات، والمطلوب منى، وأنا أجذب ما سوف  
يكون لى، أن أفعل ذلك بفكرى الذى أعرفه، فما هو السبيل  
أن أمنع ترددات الأفكار الأخرى التى تزاحم هذا الفكر مما لا  
أعرف، وربما يكون لها ترددات أقوى، فتجذب إلى داخلى ما  
طلبتُ هى، لا ما طلبت أنا.

أمّا أن الأفكار تصير أشياء فهذا شىء له دلالات أخرى عندى  
لأنى أقبله بشكل آخر، فى العلاج الجمعى نحاول أن نقلب كل فكرة  
إلى شخص يتكلم، وفى الهلوسة (ليس بمعناها المرضى) تنقلب  
المفاهيم، الأفكار إلى أشياء فى عملية تسمى "التعيين النشط"  
Active concretization ،

الأفكار تنقلب أشياء، هذا رائع يخفف عنا عبء الانفصال  
الذى حدث بين الفكرة والفعل والوعى والوجدان، لكن أن  
تُختزل إلى أن فكرتى فى الرغبة فى سيارة جاجوار، مع كل الجذب

الواجب تنقلب إلى أن أحوز سيارة جاجوار إذ تنجذب لى تلك السيارة من معرض سيارات الكون، بعد أن تهين الأسباب البشرية المادية طبعا (حتى لاتزعل سيدى)، أن يحدث هذا هكذا؟ فاسمح لى،

وماذا عما إذا ما أتتى أفكار فيما لا أرغبه، لتحل محل ما أرغبه، هل تسمى هذا وسواسا أم ماذا؟، وكيف أدفعه؟

#### (الخواجة التاجر- ربما حسن النية):

عندما تركز فى الشيء الذى لا ترغبه وتصرخ -"لا"- عليه

فإنك فى الواقع لا تقوم بدفعه عنك بل إنك تحرك نفس فكرة ما لا ترغبه

#### (واحد مصرى طيب يقظ):

طيب ، بالله عليك، كيف أدفعه ؟

#### (الخواجة التاجر- ربما حسن النية):

إن كنت تشكى - "كم ذلك سيء"-

فإنك تنشئ مزيدا من - "كم ذلك سيء"-

#### القراءة

أشكرك، وددت لو حصلت على أحد الأحجار الكريمة قبل أن أنهى يومية اليوم. وهأنذا أعثر على أول حجر من هذه الأحجار،

أنا أوافقك تماما، بل دعنى أذيع لك سرا يوافقنى عليه أغلب مرضاى، وإلى درجة أقل يقتنع به الأهل، وإلى درجة أقل فأقل يصدقنى زملائى، وربما يسخرون منى بعد ذلك.

رحت مؤخرا أكتب تعليمات على أغلب الوصفات (الروشتات) التى أكتبها لمرضاى (أقول أغلب) أكتب ما يلى:

■ ممنوع وصف الآلام والمتاعب والأعراض إلا للطبيب وحين يأتون لوصفها كما وعدت، أخرف بهم بعيدا عنها ما أمكن ذلك.

■ ممنوع الكلام فى الماضى (خاصة بما يتعلق بالشكوى) مع المحيطين

■ ممنوع الاستغفار، ويقلب حمدا مع الإكثار من الحمد

■ وغالبا ما تظهر فى عيونهم تساؤلات، أو رفض، باعتبار ما يسمعون فى وسائل الإعلام والدراما هو عكس ذلك، فهم يسمعون، أن العلاج هو أساسا "فضفضة"، ويعبرون عن ذلك بتكرار ما يقال لهم "طلع إلى فى قلبك"، "ما تكتمشى فى نفسك"، أحاول أن أفهم أن هذا بعد آخر، وأن علينا أن نوقف هذا التأكيد على الشكوى طول الوقت، ولعلك تلاحظ يا سيدى كيف أن هذه التعليمات تتفق مع ما أسميته أنت: "كم ذلك سيء". فإذا كان الامر يتعدى "كم ذلك سيء"، إلى كم أنا سيء فخذ عندك: أثقال من تثبيت لا يمكن تصديقها

بل إن كثيرا من المرضى ينسون ما يشكون من آلام، ومصاعب، فيأتى الواحد منهم ممسكا بورقة مكتوب فيها أن عنده صداع فى الجانب الأيمن، وأحيانا يشير إلى الجانب الأيسر وهو يقرأ من الورقة، ليس معنى ذلك أنه يدعى، لكن الذى أريد موافقتك عليه، وتوصيله إلى الناس أن كثرة تكرار ما هو شكوى، أو ألم، أو معاناة، يثبت الشكوى والألم والمعاناة بشكل مضطرد.

ثم إن الأهل أحيانا ما يشتركون فى لعبة التثبيت هذه بكثرة تذكرة المريض بما يشكو، وبما يعانى، باعتبار أن ذلك يخفف مما به.

أنا أحفظ على تفسير ذلك بالإجاء الذاتى،

لقد استبعدت تفسير "السر" الذى تحكى عنه بالإجاء، لأن الشهود الذين شهدوا بتحقيق طلباتهم (من كتالوج الطلبات من الكون بالجدب المباشر - عقبالنا) لم يخيل لهم أنهم حققوها، بل هم حققوها بالفعل،

إن الإجاء هو إيهام بما ليس هناك، فى حين أن السر يجعل الأفكار تصير أشياء عيانية حاضرة.

هناك أبعاد أخرى كثيرة فى اتجاه الموافقة على هذه النقطة الإيجابية قد نعود إليها ونحن نفحص أحجارا كريمة تالية، إذا نجحنا فى إزاحة غير ذلك،

**ولنا لقاء فى يوميات قادمة.**

الخميس 13-12-2007

## 104- قبل قراءة الأملام:

أول أمس كان يوم مولده، 11 ديسمبر 1911، ذهبت بدعوة من د. زكى سالم إلى فرح بود، قابلت صديقين عزيزين حسن ناصر ونعيم صبرى، ياه!! بالإضافة إلى الداعي ومحبيين أفاضل أوفياء،

لم أكن قد ذهبت لأعوام حتى قبل رحليه (إن كان قد رحل)، قررت أن ألق بقراءة هذه الأعلام القصيدة التي كتبتها في عيد ميلاده الثامن والتسعين وكذلك قصيدة رئائه أيضاً، حتى لو كنت قد نشرتها عشر مرات.

بل إنى إذا أعطانا الله العمر،

أريد أن أعترف أنى كلما قرأتهما حسبت أنى أقرأهما لأول مرة، وأنى لست الشخص الذى كتبهما.

\*\*\*\*

قراءة فى أحلام فترة النقامة  
العلم (15)

بهو رُصت على جوانبه المكاتب .. إنه مصلحة حكومية أو مؤسسة تجارية والموظفون بين السكون وراء مكاتبهم أو الحركة بين المكاتب.

وهم خليط من الجنسين والتعاون فى العمل واضح والغزل الخفيف غير خاف. وأنا فيما بدا من الموظفين الجدد ومرتبى على قد حاله وشعورى بذلك عميق، ولكنه لم يعنى من طلب يد فتاة جميلة وهى كموظفة أقدم وأعلى. وألق أنها شكرتني ولكنها اعتذرت عن عدم الاستجابة لطلبي قائلة:

- لا نملك ما يهين لنا حياة سعيدة

وتلقت بذلك طعنة نفذت إلى صميم وجدانى.

ومن يومها تحسبت مفاحة أى زميلة فى هذا الشأن على الرغم من إعجابي بأكثر من واحدة. وعانيت مر المعاناة من العزلة والكآبة.. وألحقت بالخدمة فتاة جديدة فوجدت نفسى فى مكانة أعلى لأول مرة. فأنا مراجع وهى كاتبة على الآلة

الكاتبة. ومرتبى ضعف مرتبها إلا أنها لم تكن جميلة بل الأدهى من ذلك أنى سمعت همسا يدور حول سلوكها، وبدافع من اليأس قررت الخروج من عزلتى فداعبتها فإذا بها تداعبنى ومن شدة فرحى فقدت وعيى وطلبت يدها، وقالت لى:

- آسفة!

فلم أصدق أذنى وقلت وأنا أتهاوى

- مرتبى لا بأس به بالإضافة إلى مرتبك

فقلت مجدية:

- المال لا يهمنى

وهمت أن أسألها عما يهمنى حقا ولكنها ذهبت قبل أن أنطق.

\*\*\*\*

### القراءة

هذا الشعور الأساسى فى الوجود، أن تكون مقبولا، أن تريدك "أنت" أخرى،

أن تسمح لك أن تكون رجلها،

هذا هو صك الاعتراف بوجودك من عدمه،

دع كل ما بعد ذلك جانبا:

البدء أن تكون مقبولا، مرغوبا فيك.

منعت نفسى أن أسبح "لعثمان بيومى" (حضرة المحترم) أن يتسحب إلى قراءتى لهذا الحلم، الفروق بلا حصر، لكن هناك ما أحضر عثمان إلى الساحة، فطرده،

القبول اعترافاً بوجودك، تخليقاً لك، يأتى بعد ذلك الخب أو الجنس أو الزواج على أرضية هذا القبول،

يبدأ الإعراف بك من قبل "الأم"، وقد ينتهى به، وقد يتطور منه،

الواضح فى هذا الحلم أن المرأة هى السيد، هى التى بيدها القبول والرفض،

الأم هى أول من يُنتدب للموافقة على حضور ابنها إلى هذا العالم،

ومع أنها هى التى سمحت لطفلها أن يغادرها، أن يخرج منها، لينطلق إلى العالم حيث ينتظره غيرها منهم ومنهن، إلا أن موافقتها بقبول وجوده خارجها معها، ثم خارجها بعيدا عنها، هى خطوة لا غنى عنها.

دع جانبا دور الرجل - فيما بعد - فهو دور خادع مخادع إذ يتصور أن الأمر بيده مجرد أنه - غالبا - هو الذى يتقدم بالطلب

الأهم هو: "من التي تقبل؟" وهل تقبل؟

.....

المسرح في الحلم تقليدي هادئ هامس: العمل نمطي رتيب، بلا حركة حقيقية، العقول ساكنة وراء المكاتب، أما الحركة فتبدو حركة "سيرا في الحل": بين المكاتب.

وبرغم ذلك فالرسائل الخفيفة تتبادل بين الجنسين: فواتح كلام، أو لتزجية الوقت .

الراوى يحسبها بالقلم والمسطرة هي: "موظفة" أقدم وأعلى (نستنتج نحن أنها أكبر سناً)، لكنه يُقدم، فتد عليه بالقلم والمسطرة أيضا: "لائلك" ما "يهيئ" لنا حياة "سعيدة"

فمن أين الطعنة، وفي صميم الوجدان؟

المتقدم مطمئن للنتيجة، وهو يعرف موقعه منها، فهي أقدم ليس فقط وظيفيا، وإنما، ربما، اجتماعيا، كما بلغني من بقية الحلم، وربما من كلمة "أعلى"، فالرفض وارد، والأسباب موضوعية واضحة، فلماذا ينتهي المشهد بالطعن، وفي صميم الوجدان؟ (الوجود!)

الطعنة تأتي من عمق رسالة "الرد"، وليس من مجرد الرفض: إنه غير مرغوب، فيه غير مقبول = غير موجود!! وكأنها بهذا الرفض قد انتزعت هوية وجوده من جذورها.

.....

ها هو يعيد حساباته ليتجنب كل أسباب الرفض الظاهرة السابقة، دون الغوص إلى الأسباب الحقيقية، (مع أنه يعرفها، غالبا، لا شعوريا على الأقل)،

الفتاة الثانية تبدو نقيض الأولى، هو يتغاضى عن كل شئ حتى يتجنب الرفض، جمال متوسط، درجة وظيفتها أدنى، تعيينها أحدث، ثم ماذا يهمه عن الهمس حول سلوكها.

التقدم هذه المرة كان بدافع اليأس، اليأس من ماذا؟ اليأس من جدوى الانسحاب النهائي إلى قوقعته، اليأس من التنازل عن حقه في الوجود.

ها هويكسر قوقعته، يخرج من عزلته مرة أخرى، ويبدأ بالمداعبة، (وليس مباشرة بطلب يدها)، فتستجيب (فإذا بها تداعبن)، إذن فثم قبول مبدئي،

ما لاح من قبول مبدئي هذه المرة يجعل الطعنة أقسى، حتى بعد أن "جاء على نفسه" جوابها جاء ببساطة أنها "أسفة"،

الرفض في المرة الأولى، كانت أسبابه ظاهرة وعملية، كما قلنا

الرفض هذه المرة هو رفض آخر، أقسى وأمر، هو رفض له شخصيا، رفض له رجلاً، هل كان رد المداعبة ترضية خاطر؟

أو موافقة موقوته مرتبطة بالهمس حول سلوكها؟ ربما؟  
 أما أن تقبله رجلها، الآن، ثم دائماً؟ فهذا أمر آخر .  
 الطعنة هذه المرة في الصميم، في بؤرة وجوده تماماً.  
 ما أن لاح له احتمال أنه مرغوب فيه (فإذا بها تداعبني)  
 حتى فقد وعيه  
 وفي غمرة نشوة احتمال القبول إذا بالصفعة تصقعه أنه  
 "ليس هو الذى ..."، ليس أنت.

"لست أنت!

أنت لست مرغوباً فيك من أصله".

ما الذى ينقصه ليكون مرغوباً فيه؟

ماذا فعل حتى لا تعترف الواحدة تلو الأخرى بوجوده؟

ماذا عليه أن يفعل.

هل اعترفت به أمه أصلاً؟

هل اعترف به أحد؟

هل اعترف هو بنفسه، لنفسه؟

هل كان عليه أن يعدل من البداية عن المحاولة الأولى؟

هل كان مطلوب منه ألا يتنازل عن نقائص الثانية وما  
 شاع عنها؟

هل كان عليه أن يحجم عن أية محاولة من الأساس؟

هل كان عليه ألا يصدق أنها بادلتها المداعبة؟ إلا من باب  
 المجالة، أو استجابة موقوته متسقة مع الهمس حول سلوكها.

المال لا يهمها.

ما الذى يهمها؟

ما الذى يهم؟

هل يعود إلى قوقعته؟

إلى كهفه؟

لكن بالله عليكم: ماذا يغيرني في جوف الكهف،

وصقيع الوحدة يعنى الموت؟

لكن الموت الواحد: ... أمر حتمي ومقدر،

أما في بستان الحب،

فاخطر الأكبر

أن تنسوني في الظل،

ألا يغمرنى دفة الشمس

أو يأكل برعم روحي دود الخوف.

فتموت الوردة في الكفن الأخضر،

لم تتفتح

والشمس تعانق من حولي كل الأزهار،

هذا موت أبشع،

لا..

لا تقتربوا أكثر،

جلدى بالقلوب  
والتوقعة المسحورة  
تحميني منكم

(هذا الجزء الأخير هو من ديوانى "سر اللعبة" 1973)

وهو يدور حول مثل هذا الموقف بشكل ما!

\*\*\*\*

الحلم (16)

هناى الطبيب المساعد على نجاح العملية .. عقب إفاقتى من  
التخدير أشعر بارتياح عميق وبسعادة النجاة الصافية.  
دخلت الحجرة فجاءت الممرضة بكرسى وجلست مقربة برأسها من  
رأسى. تأملتني مليا ثم قالت لى بهدوء شديد:

طالما كانت أمنيقي أن أراك راقدا بلا حول ولا قوة!

قالت باحتقار وحقد

- جاء وقت الانتقام

وقامت وغادرت الحجرة تاركة إياى فى دوامة من الحيرة  
والقلق والخوف، كيف تتصور تلك المرأة أنى أسأت إليها على  
حين أنى أراها لأول مرة فى حياتى، وجاء الطبيب الجراح ليلقى  
على نظرة فتشبتت به قائلا:

- أدركنى يا دكتور فإن حياتى فى خطر!

فأصغى إلى وأنا أقص عليه ما جرى. وأمر بعرض الممرضات  
المكلفات بالخدمة فى العنبر على ولكنى لم أعثر على الممرضة  
بينهن

وغادرنى الدكتور وهو يقول:

- 'أنت هنا فى كامل الرعاية'

ولكن صورة الممرضة لم تفارقنى

ولم تغب عنى الوسواس.

وكل من دخل الحجرة نظر إلى بغرابة كأنى أصبحت موضع  
تساؤل وشك. وتراءى أمام عيني طريق طويل ملئ ملئ بالمتاعب.

\*\*\*\*

القراءة

أهى عملية قيصرية؟

ليس تماما،

لكنها الولادة.

لا مفر هنا من استطراد لعرض موجز للأسس المبدئية لنظرية  
العلاقة بالموضوع Object Relation Theory (المدرسة  
التحليلية الإنجليزية، ما بعد فرويد - ميلانى كلاين - فيربيرن-



جانترب)، مع التحذير المبدي من أن نقرأ كلمات بارنوي Paranoid، أو اكتئاب depressive، أو شبه فصامي schizoid (شيزيدي) على أنها تشير إلى، أو تدل على، أية أمراض، إنها الألفاظ التي ارتضت هذه المدرسة أن تستعملها لوصف مراحل النمو العادية عند كل البشر.

نجيب محفوظ لم يقرأ التطورات الأحدث فالأحدث في التحليل النفسي والمدارس النفسية، وهذا أفضل، هو يكتشفها أعمق وأروع، ويعلمنا ماهيتنا متأصلة انطلاقاً من إبداعه (أبعد من ديستوفسكي لأسباب ربما أذكرها فيما بعد).

أعرف عنه احترامه لفرويد، وقد شاهدت تأثير فرويد في بعض كتاباته هنا وهناك، واعترضت على المباشرة والرمزية في بعضها، ومع أنه (نجيب محفوظ) غاص إلى ما غاص إليه كارل يونج، إلا أنى رصدته قد غاص مجدسه على حسابه دون تأثر مباشر بيونج، مع أنهما وصلاً - تقريباً - إلى ذات القاع، مثلاً في (ليالي ألف ليلة محفوظ).

- حين أصدرنا أول عدد من مجلة الإنسان والتطور أرسلنا إلى كل من وثقنا في رأيه نطلب توجيهها ونقداً، لم يرد علينا سوى أربعة كان نجيب محفوظ أحدهم، جاء في رد نجيب محفوظ ما يلي:

السيد الاستاذ / رئيس التحرير  
تحية طيبة وبعد

فقد اطلعت على مجلتكم فكانت سبيلي - مشكورة - إلى تصور جديد لعلم النفس يماشي تطوع الإنسان المنهك المعاصر إلى التوازن والقيم والإيمان، وثق من أنى أتمنى لها الاستمرار والنجاح، وكانت أول نتيجة لاطلاعي عليها الاسراع في اقتناء أحد مراجعها المتاحة وهي: علم النفس الانساني ولا أشك في أنها تحوى جديداً كما أعتبرها مجلة علمية ثقافية كما أعتبرها نفحة حياة طيبة في الركود الخانق وفقكم الله ودمتم للمخلص

نجيب محفوظ  
1980/1/24

هكذا كانت روعة متابعته وتشجيعه لكل جديد في علم النفس وغيره، هكذا كما تشجيعه لكل محاولة جديدة، ولم أكن أعرفه آنذاك إلا قارئاً عادياً لأعماله!! ولو كان عرف عن مدرسة العلاقة بالموضوع التي أقدمها الآن لكان أحاط بها أحسن مني.

هذه المدرسة التي أقدمها حالياً ترتب مراحل النمو العادي تدرجاً من مرحلة إلى مرحلة، تسمى كل مرحلة "موقفاً"، وهي ترجع هذه المواقف إلى علاقة الطفل بأمه،

1- نبدأ بالطفل في بطن أمه وعقب الولادة مباشرة حيث ليس له علاقة بأي آخر كموضوع أصلاً، وتسمى هذه المرحلة الموقف الشيزيدي Schizoid position

2- ثم بعد الولادة بقليل جدا يبدأ الطفل التعرف على الموضوع (بدءاً بأمه) حيث يغلب التوجس والخذر، ويكون أسلوبه في التعامل مع أي آخر هو "الكر والفر" باعتبار الموضوع هو مصدر خطر فقط، إنه العدو الذي يهدّده وجوده، وعليه أن يدافع عن نفسه تجاهه، وأن يتقى شره، وتسمى هذه المرحلة الموقف البارنوي paranoid

3- ثم يأتي الموقف الثالث حين يتبين الطفل أن الموضوع الذي كان يعتبره الطفل خطراً هو مصدر الحياة (الرضاعة) والدفء (الحضن) والحنان (العلاقة)، لكنه في نفس الوقت هو مصدر خطر أيضاً، لكنه خطر من نوع آخر، الخطر في هذا الموقف الثالث يأتي من التهديد بالهجر، ومن ثم الموت جوعاً وضياًعاً.

إذا تهدد الطفل من مصدر الحياة الأساسي بأن ثم احتمال للترك أو الهجر فإنه يستعد للانقضاض عليه للاحتفاظ به، فيخاف عليه، ويتقدم إليه، ويحتاجه، ويرفضه، ويكرر ذلك، وهذا هو ألم الاكتئاب الدافع للنضج إذا استمرت مسيرة النمو في الاتجاه الصحيح.

"الموضوع" هنا في الموقف الاكتنابي حقيقي، وبعيد، وقريب، وفي المتناول، ويهدد بالاختفاء في نفس الوقت، ذلك لأنه موضوع مُحَبٌّ وخطر في آن واحد.

.....

أعرف أنني أطلت، لكنني شعرت أن تقديم هذه المدرسة، ولو بهذا الإيجاز، هو ضرورة ميدانية ونحن بعد في حلم 16، ذلك لأن أسس هذه المدرسة هي محور فكري النظرى، والتطبيبي والنقدى أحياناً،

فمثلاً كانت هي الأساس الجوهرى في نقدي لكل من يقين العطش لأدوار الخراط، واسم آخر للظل.

## الحلم

تدخل الآن إلى قراءة هذا الحلم (16)

يبدأ الحلم بإخطارنا أننا في الموقف الشيزيدي الحالم الناعم تحديداً، قرأت ذلك باعتباره أننا في مرحلة قبل ظهور الوعي الذاتى، نحن داخل الرحم حيث لا موضوع، يمتد هذا الوضع إلى ما بعد الخروج من الرحم مباشرة، لم أستنتج ذلك من بداية الحلم فقط، وإنما من فقرة في أصداء السيرة الذاتية.

نتوقف هنا لنقرأ بعض فقرة "99" في الأصداء

... تحية للعمر الطويل الذى أمضيته في الأمان والغبطة. تحية لمتعة الحياة في بحر الحنان".

من خواطر جنين في نهاية شهره التاسع

هنا في هذا الحلم يمتد "جر الحنان" بما يمثله "التخدير" إلى ما بعد الولادة (العملية)، الفرق هو ان هذا التخدير يحقق ما أسماه هنا "ارتياح عميق وسعادة النجاة الصافية" هذه هي الجنة قبل الوعى بالوعى، ومواجهة الآخر الموضوعى.

يشير الحلم هنا تحديدا إلى امتداد هذا الموقف إلى ما بعد الولادة (غير الأصداء)، وهو الموقف الشيزيدى الذى يمتد فعلا أياما او أسابيع بعد الوضع.

### ينقلنا الحلم بعد ذلك مباشرة إلى الموقف التالى:

تظهر الممرضة وتقترب مثلما يقترب وجه الأم من الطفل،

أول عاطفة يشعر بها الطفل تسمى البهز Orientation حين تقع عيناه على أول وجه آدمى (وجه أمه عادة)،

بمجرد أن يتبين العقل أن ثم آخر - بعد دهشة البهر- يتحقق من أن هذا الكيان الآخر هو غير كيانه "لا أنا" "not me موجود في الدنيا، في العالم، فنجد أنفسنا في الموقف البارنوى يعيش الطفل موقف المطاردة والكر والفر والالتهم دون جريرة.

إعلان نية هذا الآخر في الانتقام هو مجرد شكل من أشكال توضيح أن الآخر عدو بلا أدنى شك، وأن الثأر قديم قدم الخروج من الجنة (الرحم).

المهم هو أن هذا الموقف البارنوى يعلن أن كل من هو "ليس أنا" هو خطر على.

استقبالنا التخدير هنا على أنه مرحلة ما قبل الوعى، يجعل الاستنقاذ بالطبيب (أدركنى يا دكتور فإن حياتى فى خطر) بمثابة إعلان للرغبة في التنازل عن الوعى البازغ، بمعنى أنه إعلان الرغبة في العودة إلى المرحلة السابقة (التخدير-الرحم) وهذا من آليات النمو فيما يسمى برنامج الدخول والخروج: in - and - out program (كما يحتاج لتفصيل لاحق).

التطمين الذى منحه الطبيب (لم يذكر هنا المساعد) قد يكون إعلانا لبدية النقلة إلى الموقف الإكتئابي حين يصبح الآخر مصدرا للطمانينة، لكن دون ضمان طمانينه دائمة، وهذا ما يشير إليه استنقاذ الكيان المهذّب بالجانب الخافى واهب الحياة الجراح الكبير، لكن في نفس الوقت مع الوعى بالمخاطر بنفس الدرجة.

من هذا يمكن أن نلمح بزوغ مرحلة الانتقال إلى الموقف الاكتئابي (لم يظهر بعد)

اختفاء وجه الممرضة الخطرة، واستبداله بمرضات عاديات مكلفات بالخدمة، قد يشير إلى أن الخطر ليس واقعا بقدر ما هو "مصنوع" انطلاقا من الموقف البارنوى.

هكذا أصبحنا في بداية الطريق الطويل الملى بالمتاعب،

هي رحلة الحياة بكل ما بها، وما تطلبه وما تعد به .  
عودة مرة أخرى إلى نفس الصدى فقرة (99) لتؤكد من  
القراءة، نسمعه وهو يقول:

... دع عنك ترهات الإنتقال إلى حياة أخرى، كيف ولماذا  
وأى حكمة تبرر وجودها، أما المعقول حقا فهو ما يجزن له  
قلبي.

(من ذكريات جنين في الشهر التاسع)

\*\*\*\*

الأهرام: 2003/12/15

في عيد ميلاده الـ "92"

صالحتي شيخي على نفسي ..

... ما عاد رسم الحرف يقدر أن يحيط ببعض ما يوحيه لي،  
في عيد مولدك الجميل، فجر جديد.  
في كل عام أحمد الله الكريم وأرجيه يكون 'يومي قبل  
يومك'، وأعود أكتشف الحقيقة أنني لم أصدق الله الدعاء .  
طمعاً بأن نبقي معا عاماً فعاماً .  
... كم أنت سهل معجز تسرى كمثل الماء إذ ينساب  
عذبا رائقاً بين الصخور من الجليد وقد ترثع شامخاً فوق  
الجلبل.

\*\*\*\*

... زعموا بأنني قادر أشفي النفوس بما تيسر من علوم  
أو كلام أو صناعة  
عفواً، ومن ذا يشفي نفسي حين تختلط الرؤى، أو يحتوي ذلك  
الحنن الصديق فلا أطيع؟  
حتى لقيتكم سيدي، فوضعت طفلي في رحابك. طفل عنيد.  
ما زال يدهش كل يوم من جديد.  
صالحتي شيخي على نفسي حتى صرت أقرب ما أكون إليه  
فيينا،  
صالحتي شيخي على ناسي، وكنت أشك في بله الجماعة  
يُدعون لغير ما هم .  
صالحتي شيخي علي حريتي، فجذعت أكثر أن أضيع بظل غيري .  
صالحتي شيخي على أيماننا المرة مهما كان منها .  
علمتني شيخي أننا قد خلقتنا للحلاوة والمرارة نحمل الوعنى  
الثقيل نكونه كدحا إليه .

\*\*\*\*

وسألته يوماً: "هل ثم حل في الأفق"؟

فأجاب يهزئ همتي: "كلا".

فسألته جزعاً: لماذا؟

قال: "صاحبنا تصور أنه صار المسيح المنتظر."

قلت: "الصليب نهايته..؟"

فأجاب وهو يكاد يقرص بعض أذني: 'لسنا يهوذا'. ....  
وهو ليس المنتظر.

\*\*\*\*

من وحى أحلام النقاة- سيدي- نشطت خلايا داخلي:

" فحملتُ أئى حاملٌ، وسمعت دقا حانيا وكأنه وعُدُّ الجنين.  
 جاء المخاض ولم يكن أبدا عسيرا، وفرحت أنى صرت أما طيبة،  
 لكننى قد كنتُ أيضا ذلك الطفل الوليد،  
 فلقفت ثدى أمومتى،  
 وسمعت ضحكا خافتا. لا،.. ليس سخرية ولكن.....  
 .... وسمعت صوتاً واثقا فى عمق أعماقى يقول: 'المستحيل هو النبيل الممكن الآن بنا'.  
 لمست عباءتك الرقيقة جانبا من بعض وعيى، فعلمت أنك كنته'.  
 وصوت أندم أننى قد كنت أحلم.  
 \*\*\*\*

### شيخى الجليل:

سامح مريدك إذ تتناول فاستباح القول دون البوح يشطخ تحت ظل سحابة الغفران والصفح الجميل.  
 \*\*\*\*

### نشرت فى الدستور

2006-9-6

### لِمَ قَلَّتْهَا شَيْخِي: "كفى" !!

ماذا جرى؟  
 كيف جرى؟  
 قد كنتُ فينا رائحا أو غاديا تخطو بنا نحو الذى قد صاغنا،  
 وجعلت إيقاع الحياة له صليلٌ مثل نبض الكون سعيا للجليل،  
 حتى حسبنا أنها لا تنتهى،  
 وظللت تخطُرُ هامسا كالطيف، كالروح الشفيف، كظل رب الكون فيما بيننا،  
 وجعلت نحت جاهدا لتعيد تشكيل البشر:  
 حُلما فحلما: واقعا مئا، لنا،  
 نسعى إلى عمق الوجود ليلتقى فينا بنا،  
**"لتعارفوا"**  
 هذا "طريق الزعبلاوى"، نحو وجه الحق، نحو النور، نحو العدل، نحو الله فينا حولنا.  
 ومضيت تقهر كل عجز، كل ضعف، كل هم،  
 حتى دعونا ربنا أن تقهر الساعات تسحبنا إلى الجهول إذ تحفى العدم،  
 حتى نسينا أننا بشرٌ لنا أعمارنا  
 \*\*\*\*

### لم قلتها شيخى : "كفى"؟

الآن؟ كيف الآن؟ شيخى!؟ ربنا!؟ بالله ليس الآن،  
 إرجع عقارب ساعتك،  
 لا،  
 نحن لسنا قدرها،  
 ليست "كفى"  
 لا،

ليس هذا وقتها ،  
 أفلست تعلم أننا في "عز" حاجتنا إليك؟  
 أفلست تعرف ما جرى؟  
 أفلست تعرف كيف تنهشنا السباع الجائعة؟  
 أفلست تعرف أن ما يأتي بدونك لهو أفسى ألف مرة ؟  
 لو كنت أقسمت عليه ،  
 من أجل خاطرنا ،  
 لأبرك الله العزيز بقدر ما وعد الذين هموا كمثلك .  
 لم قلتها شيخي: "كفى؟"  
 كنا نريدك دائما تخطو هميلا بيننا ،  
 كنا نريدك خالدا في قرة العين هنا ،  
 كنا نريدك مثل أطفال أبوا أن يُفطموا من حلو ما نهلوا  
 عطاءك، مثلنا ،  
 كنا نريدك نختمي في دفة بُردك من برودة عصرنا .  
 لكنّ خاتمة الكتاب تقررت، فسمعناها ،  
 وكنتمنا حرضا علينا ،  
 وانسحبت برقبة وعذوبة ،  
 وتركتنا .  
 لم هكذا؟  
 علمتنا شيخي أننا قد خلقنا للحلاوة والمرارة نحمل  
 الوعي الثقيل نكوئه سعيا إليه .  
 فاجأتنا ،  
 ورحلت دون سؤالنا  
 وبكى الخميس لقاءنا ،  
 وتركت بيتي خاويا في كل جمعة .

\*\*\*\*

ماذا جرى؟  
 كيف جرى؟  
 هل يا ترى : قد كان همسا من وراء ظهورنا يدعوك سرا :  
 ورجوت أن تلقاه شيخي بعد ما طال العناء؟  
 فاستاذن الجسد العليل بشجة في الرأس كانت عابرة؟  
 لا لم تكن أبدا مصادفة ، ولم يشأ القدر ،  
 كانت نذيرا بالوداع ،  
 قطعنا حبال وصلنا  
 فتهدت العهد القديم وحزرت الجسد العنيد ،  
 والشيخ درويش "الزقاق" يقولها:  
 "لا شيء دون نهاية"  
 وهجاؤها:  
 "قد حان وقت للرحيل".

\*\*\*\*

علمتنا شيخي الجليل:  
 أن الخلود بهذه الدنيا عدم ،  
 والموت لا يُنهى الحياة لكل من أعطاهم مثلك نفسه ،  
 الموت ينقلها إلى صناعها من بعض فيضك ،  
 قد كنت رائد حملها  
 يا للأمانة !!  
 يا ثقلها !!!

هل جاء من أنبأكَ أَنَا أهلها؟  
حتى الجبال أبيضن أَن يحملنّها.  
كيف السبيل، وكل هذا حولها؟

\*\*\*\*

لكنّ ما قدّمَت عَلّمنا "الطريق" إليه عبر شعابها:  
لما عرفت سبيل دربك نحوه،  
كدحاً إليه:

ودخلت في عمق العباد تعيد تشكيل الذي غمرته أمواج  
الضلال، حتى تشوّه بالعمى والجوع والجشع الجبان،

\*\*\*\*

شيخي الجليل:  
ما دمت أنتَ فَعَلتْها

فانعم بها

واشفع لنا

أَن نُحْمِلَ العَهْدَ الذي أودَعْتَنَا

شيخي الجليل:

ثمّ مطمئنا،

وارجع إليه مُبدعاً،

عبر البشر،

وادخل إليها راضياً،

أهلاً لها.

- فضلت التقريب لمنع الخلط الذي يحدث حين نترجم  
Schizoid إلى شبه فصامي، وهو خطأ صرف.

الجمعة 14-12-2007

105 - حوار/بريد الجمعة

حوار بلا ترتيب

على مدى ربع قرن!! بين ابن وأبيه!

اعتذار:

اعتذر لبقية المتحاورين، ليس بالضرورة لأسباب عائلية، ولكن لتقديم هذا الملف متكاملًا، لعل وعسى، ثم إنني أنصح أن يطبع ويقرأ على الورق، لست أدري لماذا، وأنتظر التعليق، فعلاً.

تمهيد

الذي حدث أننى أجلت ردى على د. محمد يحيى الرخاوى (تصادف أنه إبني) في حوار الجمعة الماضي، واعدأ إياه أن أحاوره هذا الأسبوع هو ود. كريم، وما تيسر مما أجناه من فيض الابن رامى عادل وطلاقتة، ثم إنى اعتذرت لمحمد بأن أودعت مقاله (تعقيبه) في ملف "المحررون الضيوف" الملحق بالنشرة" دون نقاش حتى الآن.

هذا الصباح قلت: آن الآوان أن أرد اليوم.

\* طبعثُ مقال محمد وأعدت قراءته

\* طبعثُ معظم المقالات المتعلقة بالموضوع التي ظهرت في اليومية في الشهر الأخير.

\* وجدتني قد أشرت إلى مقال القديم الذي نشرته في الإنسان والتطور بعنوان "الوحدة والتعدد في الكيان البشري"، وهو المقال الذي أشير إليه دائما كلما عاودت الكتابة في هذا الموضوع.

\* قرأت معظم التعليقات التي رحبت بتعليق محمد، وبعضها كاد يصفق له مثل د. كريم شوقي، د. أسامة عرفه، أ. رامى عادل، يبدو أنهم فرحوا أن ابني ينكشئ، وينقدني، وينبئني، وكلام من هذا.

فجأة وجدت نفسي أمام حوار من نوع آخر، تميز بما يلي:

- (1) مقالات بأكملها تناقش نفس الفكرة.
- (2) الزمن بين أول مقال وآخر مقال أكثر من ربع قرن.



(3) كان عمري أيام كتبت المقال الأول 47 سنة وشهران عدد أكتوبر 1981، وعمر محمد الآن 46 سنة إلا شهرين.

(4) عثرت على مقال لمحمد كتيه في نفس السنة التي كتبت فيها مقال الأول، وتعجبت أنه مرتبط بموضوع متداخل مع موضوع التعدد وكان عنوانه "حول طبيعة المعرفة":  
المواجهة بين الفطرة والتعلم" نشر في عدد يناير 1982

(5) رجعت إلى يومية 2007/11/26 بعنوان "القشرة والفطرة والتعدد والواحدية" فوجدت ما يوازي مقال محمد (كان بعد طالبا جامعيا في السنة الثالثة كلية الآداب) عن الفطرة والتعليم، وقدم فيه منظومتيه اللتين اسماهما آنذاك "المنظومة الفطرية"، "المنظومة المكتسبة"، ليخرج من تفاعلها ما اسماه "المنظومة التطورية".

(6) عثرت على فقرة مهمة - مضيئة - في مقال "تعدد الكيانات وحركية الإبداع".

ونظرت في كل ذلك معاً، فقررت أن أجعل حوار اليوم - مهما طال - "حوار مقالات"، بفروق زمنية وفكرية بين الأجيال، وبين المقالات، فروق تتراوح بين عشرين وثلاثين عاما تقريبا. رأيت أن لها دلالتها وأهميتها.

#### تردد وتساؤلات

بعد كل ذلك غمرتني أسئلة لم أستطع الإجابة على أغلبها مثل:

1- هل هناك فائدة في هذا الحوار المقالاتي أم انها منظره عائلية؟

2- هل هناك وجه شبه بين ما كتب باكرا وما كتب لاحقا؟ وهل وجود وجه الشبه يدل على الجمود؟ أم على وضوح الرؤية؟

3- هل ثم مجال لمقارنة منهجية بين هذه الأبعاد بهذا الفارق الزمني؟

4- هل القضية التي طرحت هكذا - وغير هكذا - لها مكان حاليا في تطورنا العملي والفكري والحضاري؟ أم هي لعبة استعراض عضلات المخ؟

5- هل ثم مجال لإسهام آخرين في هذا الحوار

قبل أن أوضح نظام تقديم حوار اليوم، أود أن اعترف بالفضل لهذه المجلة -الإنسان والتطور- التي ظهرت بالصدفة منذ ربع قرن، ولم تكن توزع إلا بضع مئات كل ثلاثة أشهر، ثم لهذه اليومية التي ظهرت بالورطة والعناد والتي أثارت كل هذا الجدل .

كل ما فعلته هو أني قمت بترتيب هذه المقالات (الحوارية) أملاً في مقارنته، واحتمال التقاط الحوار، مع أقل قدر من التعقيب:

المقال الأول: 2007-12-8

الوحدة والتعدد في التركيب البشري

كيف؟ إلى أين؟

عمد يحيى الرخاوى

الأستاذ الدكتور يحيى الرخاوى:

عندما بدأت - مرة أخرى- في تناول مسألة تعدد الذوات في ندواتكم الشهرية بالمقطم، وأعلنت أنا فيها أنني أواجه صعوبة في تقبل مسألة "تعدد الذوات" هكذا، كنت أكتب لكم ورقة (أسيها هنا الورقة الأولى) لم أُنهها إلا الآن للأسف؛ فلم أرسلها، وانتظرت حتى أفهم أكثر. ثم إذا بكم تعيدون طرح الموضوع في كتابتكم (اليومية !!!) في موقعكم الإلكتروني، فوجدت نفسى أكتب لكم (الورقة الثانية) حيث أتصور أنني أنجزت بعض خطوة إضافية في توضيح مكنن صعوبتى، وتحديد تحفظاتى. وهما الورقتان اللتين سأشرف بقراءتك لهما بكل تأكيد.

الورقة الأولى

الأستاذ الدكتور يحيى الرخاوى

تكرر إلحاحكم على مسألة تعدد الذوات في النفس البشرية (عامة). ومع كل تكرار أستعيد صعوبة بالغة في الفهم والاستيعاب، وأستعيد أيضاً لحات خاطفة من مشاعر الموافقة والتسليم بل والترحيب أحياناً. هذا بينما كان تعبير الصديق حافظ عزيز (ومثله هالة ثمر وغيرهما كثير) أنه عندما يقرأ كتاباتكم عن تعدد الذوات فكأنه يقرأ من يشرح له كيف أن  $2=1+1$ .

وفي محاولة لفهم منشأ الصعوبة التي أواجهها، وكذلك منشأ لحات التسليم والراحة هذه، خصوصاً عندما لا يتعلق الأمر بمجال المرض النفسى وعلاجه وأعراضه ومضامينها، أجد عدة عوامل متجاوزة، أشير لبعضها كالتالى:

1- إن فرط ثقتكم في مسألة التعدد وفرط ثقتنا فيكم تدعونا لقبول دون فهم كافٍ، ودون تدقيق مفهومي مناسب لمن أراد للمسألة أن تتحول إلى علم مؤسس على وضوح المفاهيم وتعريفها. إلا أن إلحاحكم والتكرار يدعوانى لرد الدعوة إليكم لإعادة النظر في الصيغة كما تطرحونها وتتواصلون بها، فكأنكم أنفسكم تستشعرون أن ما وصل للغالبية غير كاف لترسيخ اتفاق مقبول أو تواصل منتج.

2- أحياناً أفترض في شخصى وقدراتى وخبراتى قصوراً هو ما يعجزنى عن الفهم، وأفترض أحياناً أخرى أنني أخاف؛ فأستخدم آلية للدفاع النفسى تمنعنى من الاعتراف بطبيعة التعدد كما تطرحونها بصيغة الذوات، مما يجعلنى أصمت غالباً، في انتظار الفرج أو النمو. بل أحياناً أخرى، عندما تفرض لحظات التسليم نفسها على، يصل بي الأمر إلى تصور أن تحفظاتى منبعها عزة بالإثم، وهذه من بين أكثر ما أكره في البشر وفي نفسى بالطبع.

3- أجدني أقرب للموافقة عندما تُطرح المسألة بصورة ضمنية، من خلال "ممارسة" لعبة، أو "ممارسة" تواصل علاجي ناجح؛ أو طرحت مفهوماً في سياق مناقشة مرض نفسي جسيم دون تعميم على غير المريض المحدد، حيث يبدو الأمر سلساً وقريباً. ومن مألٍ للثقة فيكم مألٍ للإمساك بهذا السلس القريب حتى ولو دون فهم. إلا أن هذه السلاسة والقرب يستفزان ملكتنا المفهومية، فهما سلاسة وقرب خارج حقل السيطرة المفهومية المعتادة، كما أن غياب الفهم المستقر يجعل هذا السلس القريب يطير بسرعة.

4- أما عندما يتم استخدام الكلام المجرد، المفهومي، المعمم من المرضى على غير المرضى؛ فلا أستطيع إلا أن أقول أني أصادف الكثير من التأكيدات لفكرة الذوات المتعددة لا يساندها شرح يبرر كونها ذاتاً (إلا في القليل) ولا تدعمها مشاهدات ذات ثبات علمي متفق عليه. ثبات يربط النتائج بالمقدمات بطريقة تجعل النتائج ("تعدد الذوات"، أو "صيغة" تعدد الذوات) ضرورية. والحق أن إظهار الضرورة من أهم محكات الصدق التي أثق فيها وأعتمد عليها حين أحسم مسألة تصديق مقولة أو نظرية.

هذه بعض من انفعالات عديدة تمر بي وأنا أتابع إصرارك على توصيل الفكرة. والانفعال، بمعناه اللغوي قبل الاصطلاح، أقل من رد الفعل الذي أمناه حواراً فاعلاً. هكذا أطح عليكم مجموعة من الأسئلة أعتقد أنه سيكون في محاولتكم الإجابة عليها - إن فعلتم- ترسيخ للفكرة، وإجابة لتساؤلات لا أعتقد أنني الوحيد الذي يسألها، وتسهيلاً لتواصلها بما يمكن أن يفيد منها كما أوقن أنكم تأملون:

1- أحياناً أفكر: لماذا صيغة تعدد الذوات، دون صيغة أخرى أسهل وأقرب وربما تؤدي الوظائف نفسها (إذا كانت تؤدي الوظائف نفسها!!)؟؟ هذا تساؤل صادق يبحث عن إجابة عادلة، وليس استنكاراً لصيغتك كما قد يتبادر. لماذا تصرون على صيغة جاهزة، وربما تكون اختزالية، لا شارحة ولا مفصلة، لفكرة التعدد، هذا بينما أتصور أن تجليات فكرة التعدد متنوعة أكثر بكثير (وربما لانهائية) من سجنها في صيغة الذوات؟

2- محك آخر من المحكات التي أعتمد عليها بشدة في قبول ما أقبل والتشكك فيما عداه (غير محك الضرورة المذكور آنفاً والذي سأعود إليه) هو محك الفائدة. قد لا نفهم ولا نوافق على صدق فكرة بشرحها، بينما يمكن أن نقبلها إذا عرفنا فوائدها أو عرفنا عن فوائدها، تفصيلاً وتعداداً (ودعاية أيضاً): فما فائدة تعدد الذوات (بهذه الصيغة غير الرحبة؟؟ أعتقد أن جهداً إضافياً في سبيل الشرح والتفصيل وبلورة الفوائد سيضيف إلى أهمية الفكرة وثباتها أو رسوخها، بعيداً عن الاستثناء المتطرف لحالات المرض النفسي الصريح. لا أعتقد أنه يكفي لبيان الفائدة أن تصوغوا رؤيتكم عن الإبداع أو الصحة النفسية أو الوعي في إشارات مختصرة، هكذا بمفاهيم لا تخلو من إجمال

التفاصيل وغموض التعريف وغياب الاتفاق، بل لا تخلو أيضاً من شبهة حمولة قيمة متحيزة، حتى لو وافقكم عليها مريدوها الذين أظنني واحداً منهم. لا ولا يكفى أيضاً أن تستشهدوا باستجابات هؤلاء المريدين وغيرهم الكلامية في ألعاب علاجية مصوغة بطريقة موحية وموجهة. إن الرحابة التي يوفرها وينشؤها لعب الدراما في ألعاب الدراما لا تحتاج -بالضرورة- إلى فكرة الذات المتعددة. نتكلم في الجلسات العلاجية بالدراما عن أدوار تُلعب في تفاعل مع كل من "السياق" والكاركتير (الشخصيات، ولكن بالمصطلح الدرامي الأدق والألطف)، ومع ذلك فهي توفر ما يكفى ويفيد من الرحابة ومن التحرر من وطأة الذات المعلنة ومن اللعب بالإمكانات الأخرى. أتوقع ألا يغطي هذا كل ما تريدون تغطيته بكفاءة، ولكن هل فعل مصطلح الذات ذلك؟

3- وأخيراً: لماذا لا تربطونها -مباشرة ودائماً وفي كل مرة تعرضونها فيها- ببقية عناصر فكركم **التطوري خاصة**، والذي أعتقد أنه يحمل الكثير من الشواهد التي سوف تقرها من الذهن (على الأقل ذهني)؟ أتصور أن الحفاظ على هذا الربط، مهما تكرر، سيؤدي إلى إسهام مفيد تبادلياً لكل من الممارسين الفكريين (إن كانا اثنين). سأفهم أسهل عندما تتكلمون عن النمر الشكاك المفترس في داخلي، أو عن الخمار الخدوم حمال القاسية، أو عن السلحفاة البطيئة طويلة العمر أو الثعبان المبتلع الملتصق بالأرض، وبياتهما الشتوي، أو حتى عن الجنين (لا الطفل، هذا الذي أراه دوراً أكثر مما يصلني ذاتاً داخلية أو كياناً مكتئلاً)، وأكاد أدرك الضرورة المجازية/البيولوجية معاً لكل هذه المجازات التطورية الرائعة، والحق -كما أتصور- هو أنها كلها مجازات تستأهل أن تكون كذلك، بينما يصلني مجاز "الذوات" أضعف وغير ضروري أو مفيد، تواصلياً على الأقل.

يبدو أن تحفظي الخدسي، على فكرة تعدد الذات لا ينصب على مسألة التعدد، بالأحرى فإن التعدد هو ما يكمن وراء ومضات قبول وتسليمي بل وراحتي المبهمة والتي أشرت إليها في البداية. إذن يبدو أن تحفظي الخدسي ينصب على مسألة أنها ذوات.

لمصطلح الذات عندي دلالات ضمنية لا أستطيع منها خلاصاً. فالذات **الذات كيان مفتعل وهش**، وغير مستقر الاستقرار الذي يُدعى له، هذا بالإضافة إلى أن الذات ورطة أو مقلب (بالمعنى البلدي للمقلب) أو حتى خازوق لبسه الإنسان. لماذا أضيف كيانات/ورطات عديدة مفتعلة وهشة (الذوات) إلى كيان (الذات الواحدة: الأنا المتفردة) هو أصلاً مفتعل وهش ومقلب (إننا ناقصين!!؟). وكأنني بدلاً من أن أثبت هشاشته وافتعاله وكونه مقلباً إذ يدعى واحدة والتئاماً مفتعلين، وبدلاً من أراجعه لأظهر أنه يتوهم حدوداً لوجود لها تفصله عن عالم لا نهائي الاحتمالات، أثبت له واحديت (ذواتاً) أخرى، دون أن أتفادى ما يتضمنه هذا من افتعالات وربما مقالب إضافية؛ فلفظ "ذات" يحيل بالضرورة إلى ملتئم فاصل بين أنه ولاأنه.

يجيل إلى ما له حدوده وادعاءاته الكاذبة التي تسمح له بادعاء كونه ذاتاً.

أعلم جيداً أن كثيرين من تلاميذكم يقبلون طرحكم قبولاً حقيقياً، إلا أن معظمهم ممن يمتكون بشكل أو بآخر بما هو مرض نفسي (جسيم خاصة)، وربما أيضاً ينطلقون منه لفهم النفس عموماً، والحق أن هذا منطلق طالما استفزني وتحفظت على أحييته في أن تقاس عليه أمور الإنسان بعامته. بالطبع لهذا أسباب ليس هذا مكان الخوض فيها، إلا أن له أيضاً مشروعية ينبغى أن توضع في الاعتبار.

لماذا يقاس الوجود كله على الوجود الفصامي؟ لأن التفسخ يظهر التشريح الذي لا نراه دونه؟ أعتقد أن في هذا القياس قفزات مغالطة يمكن (ويجب) مراجعتها. إن أهم ما يمكنني المحافظة عليه بتحفظي هذا هو لا نهائية احتمالات التكوين البشري (في صحته وإبداعه ومرضه)، وليس لصالح وحدة الذات كما يمكن أن يتصور من يسمعي أكرر إعلان صعوبة فهمي لتعدد الذوات. هذه اللانهائية يمكن أن يشير إليها وينفي ضدها كل تعدد أو حركة أو جدل أو تفكيك أو خلافه مما قد نعرف ولا نعرف، وليس بالضرورة تعدد الذوات.

الذوات المتعددة يحتاج كل منها لاسم، ولحد، ولفاصل يفصل بين ما تعتبره هذه الذات "أنا" بالنسبة لها وما تعتبره "لاأنا"، وكل ذات تحافظ أيضاً على نفسها وعلى هويتها وعلى بقائها، إلى آخر ما ينبغى أن يتوفر من شروط لكي يسمى أي حضور أو وعي ذاتاً. وهذه شروط أراها قاسية على إمكانات التداخل وإعادة التشكيل وحتى الولادة من جديد لكل حضور داخلي متنازع أو متناوب أو متضام أو متتبع أو متجادل إلى آخر ما لا آخر له من احتمالات أوقن أننا لا نعرف عنها إلا أقل القليل، حتى لو كنا نخبرها ونحن نسعى لواحدية هي دائما أول هذه الاحتمالات وآخرها وقلبها وغايتها معاً. بل إن الفصل الذي يسمح للذات بترسيم حدودها هو نفسه موضع تساؤل جوهرى، ومع ذلك فلهذا حديث آخر.

المسألة أن استعمال دال "الذوات" يقصر الرؤية والصياغة على أقل كثيراً مما يرام الإشارة إليه.

"الكينيات" - مثلاً- أيضاً لفظ غير كاف، ولكنه لا يجرمنا حرية التفكير في كل المنظومات الممكنة التي يستعملها الإنسان لتنظيم إدراكاته (أو حتى أبعاضه) ليتمكن من التعامل معها. كما أنه (الكينيات) دال لا يجرمنا من تصور إمكانات حركة وهدم وإعادة تشكيل وجدل وتفكيك وخلافه، على الأقل ليس كما يفعل دال "الذوات". [تذكرت الآن فقط كيف أن بعض الكتاب بالإنجليزية يستعملون الدال "Construct" على سبيل المثال].

**الكاركتز** Character أيضاً يحمل مزية دلالية لا تحملها الذوات، فهو يجيل لمنطقة اللعب (لعب الدور)، هكذا يمكنني أن أتكلم عن فلان بأن له characters أو كاركترات (بالعربية)

متناقضة أو متناوبة أو متناغمة، وهكذا ونحن نلعب، ونتعلم اللعب. كما يحق لنا أن نتخلى عن لعبة ونبدأ في غيرها دائماً، بل يحق لنا أن نخترع كاركترات لم نرها، أو أن يتغير كاركترنا في الحلم أو في علاقة، أيضاً إلى ما لا آخر له. وربما نرغب في أن نزيد الأمر جدية في شؤون العلاج أو الإبداع أو العمل أو غيرها؛ فليس هناك ما يمنعنا. لا توفر لنا الذات أو الذوات مثل هذا كله، فهي دائماً ما تذكرني بما هو "أنا": أنا التي أتمنى أن أجد طريقة تخفف عني وطأتها.

بل إن **الكلمات** بدورها يمكن أن تكون تمثيلات لكيانات داخلية (ذات حضور خارجي تواصل). نعم يمكنني أن أسميها كيانات، ويمكنني أن أتصور للكلمات كاركترات أو طعوماً (جمع "طعم"). للكلمات روح، وقديماً كتبت عنها أننا "نفخ فيها ما يتخلق فينا من أرواح / نعجز والعجز فضيلة". فأين الكلمات بوصفها "كيانات" من "الذوات" بوصفها "أنوات"؟

ثمة ضمنية مهمة للغاية هنا: عندي أن الكلمات محض **احتمالات تتحقق في لحظات** مهمة للمعنى، هي ليست كيانات بالمعنى الدائم المستقر، هي لحظات زمنية تتخذ أشكالاً تتحمل البقاء لفترة في الزمن "بوصفها ذاكرة" وحسب. لماذا لا ينطبق الأمر نفسه على الكيانات التي تسمونها ذاتاً؟ لماذا لا يتم النظر إليها بوصفها محض احتمالات ممكنة من بين احتمالات لانهائية. إن هذا التصوير يعينني من أن تكون الذوات قائمة وثابتة ومعدة وحاضرة هناك حيث لا أعرف، وهو يعينني لا لصالح المعرفة، بل لصالح مزيد من الجهل المنفتح ومزيد من رحابة الإمكان.

من هنا، وعلى صعيد الفصام؛ أتصور أن مسار الفصامي - مرة أخرى- لا يصلح كقياس، وخصوصاً في مسألة الذوات. أتصور أن ما يجعل من تعدد الذوات بارزاً لدى الفصامي هو اختلال في الحركية الطبيعية لجدل الكيانات (أي كان نوعها) يجعلها تظهر في غير موعد ظهورها ولا سياقه، (أي دون أن تتكامل في شكل تواصل مقبول واقعي، كما يحدث في الحلم مثلاً)؛ فتظهر ناقصة، ناكصة، هوجاء ولا تواصلية وبدون ذاكرة أي لا واقعية؛ فالتواصل في جوهره مؤسس على إدراك الواقع المشترك، وليس على الكلمات التي يمكن أن تكون جدلغة عند الفصامي وتظل كلمات، وإن كانت لاتواصلية، وبلا ذاكرة. بعبارة أخرى: إن الذوات المتعددة لدى الفصامي (أو حتى في الحلم) لا تكافئ ولا تغطي الاحتمالات اللانهائية لطبيعة الكيانات أو المنطومات الداخلية. بمعنى أن بقاء حالات الذات، التي لا يفترض لها أن تبقى ثابتة دون التئام يجعلها تستحق أن تبقى في الذاكرة؛ هو عرض مرضي وليس ظاهرة أصلية كما يوحي القياس على الفصام. هكذا يمكن النظر لذوات الفصامي بوصفها ظاهرة استثنائية تجمعت فيها أجزاء مشتتة دون استمرار السعي للتئام الأوسع للذوات الكلية الواحدة، أو مع الذات الكلية الواحدة.

أما فيما عدا هذا، وبعد هذا، فليست لدى تحفظات.

كما أنني أنفى عن نفسي الآن تهمة العزة بالإثم وأنا أعلن أنه ما زالت لدى صعوبات، حتى ولو لم أنف احتمال أن تكون صعوباتى نتيجة تواضع في الرؤية، أو في مرحلة النضج، أو الحرية.

وأخيراً أشكركم على تحملكم.

التعقيب:

أرجو يا محمد أن تعذرنى أنني أخرت الرد، وأن ترجع إلى ما كتبت قبل ربع قرن (المقال التالى مباشرة) لتزى بنفسك أنه كان عندى نفس تحفظاتك، كما أرجو ألا يجعلك ذلك تتراجع عن مواصلة الحوار، فثم تفصيلات كثيرة تحتاج إيضاحاً وإعادة تناول، كما أن الدعوة عامة.

\*\*\*

المقال الثانى:

مجلة الإنسان والتطور عدد اكتوبر 1981

الوحدة والتعدد في الكيان البشرى

يحيى الرخاوى

دراسة الإنسان شديدة الصعوبة، شديدة الخطر، فهي شديدة الصعوبة منهجا، شديدة الخطر جوهرًا وعواقبًا، وحين أقول "دراسة الإنسان" فأنا إنما أعنى دراسته

- (1) كيانا،
- (2) وجوهرا،
- (3) وتركيبا،
- (4) وسلوكا،
- (5) وغاية،
- (6) وجزءا من كل إكبر،

ذلك أن إشاعة دراسة الإنسان كانت -ومازالت- تخضع لعوامل أخرى غير حقيقتها:

1- فالإنسان هو الشيء "الممكن دراسته" اعنى أن الظاهرة الانسانية تختزل الى ما يقع في قدرة أدوات الدراسة ومدى المنهج المستعمل، فاذا قصر المنهج عن رؤية بعد ما في الوجود البشرى فلا بد أن هذا البعد غير موجود أصلا ضمن الظاهره الانسانية، وهذا موقف متواضع عاجز، ورغم إنه عملى ومنطقى... الا أن الحماس ضاعف من عملية الإنكار هذه حتى أصبح الإنسان مجموعة ظواهر قابلة للقياس والفحص حتى ولو لم يكن كذلك فقط، أو لم يكن كذلك أصلا.

2- ثم تأتي في الطرف الآخر دراسة الانسان من منطلق محتوياته، الانسان هو مجموع ما يحوى من مخزون وطاقة يحددان سلوكه ومعامله جميعا، وتخضع دراسة هذا الذى يحتويه هذا الوعاء لإستنتاجات منطقية وعينات محتملة من هذا المحتوى، وتفسيرات رمزية تترجم هذا المحتوى إلى تصور ممكن.

ويتساوى هذان الإتجاهان في أنهما يجعلان الإنسان مجموعة أجزاء، سواء كانت نتاج جزئيات السلوك، أم تراكمات احتوي، فهل هو كذلك؟

3- وهنا يقفز إلينا مفهوم كلى شاع منذ الخمسينات، يتناول الإنسان باعتباره "كيانا كليا واعيا وإراديا" وقد سمي أغلب المتدرجين في هذا الإتجاه باسم شامل غير واضح المعالم وهو "الاتجاه الإنساني"، واستعملوا لغة عامة أقرب الى لغة الشعر متصورين إنهم بذلك قد تحطوا التجزيء والتفتيت، إلا أنهم في حماسهم نحو الكلية ضد الجزئية قد تحطوا أيضا إحتمال التعدد أصلا، وأصبح **الانسان لديهم وحدة نامية بشكل متصل**، وهم لم يبسطوا الأمر لدرجة التسطیح الذي قد يبدو من ظاهر تقديمي، فالإنسان عندهم كيان مركب شديد التعقيد والتكثيف بلا أدنى شك، لكن تركيز هذا الاتجاه على كلية ووحدة الإنسان يتخطى بشكل ما إحتمال تعدد تركيبه ووجوده جميعا.

فالاتجاهات الثلاثة قد سلمت بشكل أو بآخر على اعتبار الانسان "وحدة" بشكل أو بآخر، وهذا أمر بيهي، بل وضروري، لأن المترتب عليه هو أمور عملية ووظيفية لا تحتمل غير ذلك، فأى فرد كائنا ما كان وبغض النظر عن "ما هو"، هو يقوم من نومه ويغسل وجهه ويذهب الى عمله ويحیی الناس ويكسب القرش ... الى آخره، وعامة الناس لا تقبل في أى شخص كائنا من كان هو، (أو "ما هو") أن يكون غير ذلك، ولا تستطيع أن تعامله إلا بصفته **الواحدة المفردة** واذا ما كان الأمر غير ذلك، فإن الدهشة تبدأ، والأحكام تصدر، فاذا كان "هو" أحيانا "هو"، وأحيانا ليس "هو" وإنما هو آخر، (وفي الحالين فهو واحد مفرد) قيل أنه متقلب أو غريب الأطوار أو ذو وجهين (لاحظ أنهم لا يقولون "ذا شخصين") وقد يتحلق البعض فيصفونه بالازدواج، فإذا إزدادت الخدقة وصف بالانقسام وهلم جرا، والوصفان الأخران يحتلطان في أذهان العامة وعلى ألسنتهم بعضهما ببعض، كما أنهما يعنيان التعدد (أو الازدواج) **في أزمان مختلفة وليس في نفس الوقت.**

فاذا كان الأمر كذلك عند العامة، فهل يكون هو كذلك عند العلماء؟ حتى هذه المرحلة من التقديم يبدو أنه كذلك أيضا عند العلماء، إلا أن المتأمل للغة المستعملة في بعض النظريات النفسية سوف يكتشف أن الإشارة ظهرت من قديم تشير إلى إحتمال التعدد في الكيان البشرى في **آن واحد**، رغم ظاهر الوحدة والتفرد.

(أ) ويمكن أن نبدأ بالإشارة الى حدس يونج الأعمق لما هو كيان داخلي سواء في إشارته الى "القناع" (السلوك الخارجي) في مقابل "الظل" (الكيان الداخلي) أو إشارته إلى "الانيميا" في مقابل "الأنيمس" (بمعنى وجود الكيان الأنثوي داخل الإنسان الذكر والكيان الذكرى داخل الإنسان الأنثى)، ثم وهو يشير الى النماذج المتوارثة عبر الأجيال، بل عبر الأحياء "الأركيتايب" Archetypes، كل ذلك إنما يدل على تركيبات تنظيمية متكاملة تمثل



كيانات لا أجزاء .

(ب) ثم يأتي بعد ذلك بعض الفكر التحليلي الأحدث ليكلمنا عن " الأنا الناكس" و " الأنا المضاد للذة" ( المضاد لليبيدو)، و " الأنا الذى الليبيدى" وكيف أن هذه الكيانات التى هى فى الداخل لها شخصيتها وصفتها وطلباتها و "حضورها" ومظاهرها الصريحة فى الحلم والجنون، ومظاهرها الخفية الرمزية فى العصاب وبعض السواء، وكل ذلك تحت ما يسمى بمدرسة " **العلاقة بالموضوع** " Relation Object، ثم يأتي بعد ذلك ذكر المواضيع الداخلية Internal Object لا تشير الى محتويات الوعاء الانسانى جزئيات متجمعة أو ذكريات قابلة للإسترجاع، وإنما لتشير الى الحياة الداخلية الحاوية للموجودات الكيانية التنظيمية، ورغم تسمية هذه المدرسة لهذه المحتويات **بالمواضيع الداخلية** إلا أن المتعمق فى المعنى المراد سوف يجد إنها إنما تعنى شخوصاً بأكملها فى داخلنا، لا مجرد مواضيع، وكيفية تواجد هذه الشخوص فى الداخل لا ينبغي أن تؤخذ بمعنى " **الوعاء والحتوي**" لأن الوعاء هو هو المحتوى كما سنرى.

(ج) وفى ضربة حدس (وهى فى نفس الوقت ضربة حظ، ومأزق وعى) يرى اريك بيرن - صاحب مدرسة التحليل التفاعلاتى - الإنسان أمامه متعدداً بشكل واضح ومميز، ويعيد - بتواضع شديد - رسم خريطه الكيان البشرى فى صورة "ثلاثية" محددة ( الأنا الوالدى، والأنا اليافع- الناضج- والأنا الطفلى)، كيانات وتنظيمات (لا مجرد أجزاء ودوافع وطاقه محكومة وقوي) تتبادل وتتعاون وتتنافر وتتصارع وتتعدد وتنمو (فى بعضها مع بعض) إلى كيانات أكبر فأكبر وهكذا، ويعمل "بيرن" نظرية تركيبية متكاملة تبدأ بالتحليل التركيبى structural Analysis وتمتد الى التحليل التفاعلاتى Transactional Analysis الذى يعنى ببساطة: أنه ما دام التركيب البشرى متعدد الشخوص، فإن التفاعل بين شخص وآخر ليس تفاعلاً بين شخص واحد وآخر واحد، بل انه يجرى على **مستويات** متعددة فى **نفس اللحظة** وتشير هذه المستويات الى علاقات متبادلة ومتداخلة بين هذه الزممة من الكيانات بعضها مع بعض، يحدث كل يوم وكل لحظة فى الاحوال العادية فى **نفس اللحظة** وإن كان لا يظهر على السطح إلا مستوى ظاهر واحد فقط (للناظر غير المدقق طبعاً).

وتنتشر هذه النظرية، ويشاع إستعمالها، ثم يساء إستعمالها لأنها تؤخذ من مدخل التبسيط والإختزال، أكثر مما تؤخذ من مدخل التركيب والمسار النموى المعقد.

ولا تكتفى هذه النظرية بالحديث عن هذا "التثليث" للكيان البشرى، بل تتحدث- دون وضوح كاف -عما أسسته "وحدات الأنا" Ego units التى يتركب منها الكيان البشرى، والناظر المتفحص الى ما يعنى هذا التعبير يكتشف ان هذه الوحدات ليست الا كيانات (شخوصاً) متكاملة متراكمة يتكون منها وبها الوجود البشرى المفرد.

(د) ثم تأتي تطبيقاتى الاكلينيكية الخاصة ( منهجيا: يمكن أن تسمى بالفحص الفينومينولوجى ) لهذا المنطلق، فأواجه "الزحمة" المتناهية داخل التركيب البشرى في **الجنون والحلم والشعر** ( خاصة، وفنون أخرى لا مجال للتطرق اليها حاليا)، وكل التجارب القريبة والموازية لهذه الخبرات الانسانية المركبة، وتؤكد لى مشاهداتى ومعايشتاتى طبيعة هذا التعدد والتكاثف (وسأعود إلى كيفية ظهور التعدد فى عملية النمو فيما بعد)، وأتبين أن التعلم بالبصم (الطبع) learning by imprinting ليس سوى لصق كيانات جاهزة على الجوهر الانسانى المتلقى النامى، لتستوعب وتمثل assimilated فيما بعد، أو تظل قلقلة جاهزة للتعنتة في **الحلم والشعر والجنون وما اليها**. وأكتفى الى هنا بتقديم هذه الإتجاهات التى تعلن هذا المفهوم "الصعب" و"الخطر" لماهية الكيان البشرى.

وأعلن فى هذه المجلة نصف المتخصصة عن أهمية هذا المدخل بالنسبة للشخص العادى وعن خطورته معا فأقول:

إن تغير النظرة إلى الإنسان كوحدة إستاتيكية (أو حتى ديناميكية) إلى إعتباره "مجمع شخوص" يمثل موجزا للتاريخ ومحتوى العالم فى آن واحد، خليق بأن يقلب كل الموازين السائدة حاليا عن مفهوم الإنسان ومفهوم الحضارة ومفهوم النمو الفردى ومفهوم التطور البشرى جميعا، وتغيير هذه المفاهيم هو أمر خطير، لكن الأخطر منه هو ما يستتبع تغيير مثل هذه المفاهيم من طبيعة المسيرة البشرية.

#### وبدءا من التعامل العادى

(أ) ماذا يكون موقف الشخص العادى أمام نفسه؟ صورته لذاته؟ فخره بها؟ تحديده لها؟ لأنه إذا كان "هو" ليس "هو" بل "هم" أو "نحن" فكيف يتحدد أو يتميز؟

(ب) ماذا يكون الموقف من قرار الشخص لنفسه، وإختياره لفعله؟ من الذى اختار؟ ومن المسئول؟ (وقد يمتد هذا البعد إمتدادا خطرا ليشمل المسئولية الجنائية.....، تصور!!)

(ج) كيف نعامل بعضنا بعضا، وكيف نتفق ونتحاب ونحن قد أصبحنا "حفلة" موجودات ولسنا إرادة أفراد؟

ويمكن أن نستطرد فى هذه التساؤلات الى ما لا نهاية لنستشعر الخطر الأكبر الذى أدى بعضه الى سوء إستعمال نظرية التحليل التفاعلاتى حتى أصبح المخطيء- كمثل من الحياة العادية - يقول "لعن الله طفلى" (Dam my child) يعنى بذلك أن المسئول عن الخطأ أو التقصير هو ذلك الكيان الطفلى الداخلى، يقول ذلك بدلا من أن يتألم من المسئولية هو ككل، ويتعلم من الخطأ....وقس على ذلك.

و الآن..

إذا كان القبول بهذا التعدد هو فتح لباب سلبيات لا نعرف الى أين ستؤدى بنا، أفلا يجوز بنا أن ننكره إبتداء؟

وهنا يبدأ الخطر على العلم والمعرفة، حين يصبح الاعتراف باحقيقة الفعلية أو المحتملة معتمدا على آثارها وليس على حقيقتها الذاتية، فإذا صح أن الكيان البشرى الفرد هو بالضرورة عدة أشخاص بعضها في بعض، وضح أن هذا المفهوم هو مفهوم خطر على حدود الذات وعلى تحديد المسؤولية فلا بد أن حلقة مفقودة تكمن بين هذا الذى صح، وذاك الذى صح بما أن الكائن البشرى قد أثبت بالتاريخ ثبات خطاه نحو التقدم - حتى الآن-، وهنا يبدأ البحث الجاد بكل ما يصحبه من معاناة عن تلك الحلقة المفقودة التى غيرها لابد وأن نعترف باحتمال إنقراض النوع البشرى، ذلك لأن الحقائق التى تبدو تدهورية هى إنذارات الانقراض بلا جدال، ما لم تجد لها تفسيراً إيجابياً من عمق آخر.

فما الحل إذا؟

الحل الأسهل هو أن نسارع فنندمغ هذا التعدد بالتناثر والجنون وخاصة "جنون الفصام" تحت عناوين عرضية مثل "فقد أبعاد الذات، وتردد الكيانات، وتساوى التكافؤ" وأمثال هذه التعبيرات التى تشير إلى أن التعدد ما هو إلا مرض بالضرورة؟

ولكن ماذا عن الحلم ؟ هذه الشخص التى تظهر فى الحلم أليست كيانات متعنتة من الوحدة ظاهره التماسك فى اليقظة؟ أليست هى جزء من تكويننا الداخلى حيث المحتوى هو الوعاء ذاته كما ذكرنا؟

وقد يأتى الرد أنها ليست سوى ذكريات مسجلة قد يسمح لها بالاستعادة بشكل خاص فى غيابة الوعى أثناء النوم، لكن الدراسات العميقة والمتأنية تورى ان " الحلم فعل كيانى " وليس تكرارا ذهنيا مسطحا، وأنه إعادة خلقة وليس إستعادة متناثرة، وأن وظيفته تنظيمية " تمثيلية " assimilative وليست مجرد وظيفة تفرغية ترويجية، فأين تخفى كل هذه المعطيات هربا من مواجهة حقيقة تعددنا؟

ثم يأتى الشعر ليعرى كيان الشاعر (الانسان) الذى يصب وجوده فى ألفاظها كيانها الجديد ووظائفها الجديدة. اذ ترسم الصورة الجديدة فى إطار النغم الجديد، يعلن الشاعر هذا التعدد مباشرة ويحاول بكل وسيلة فنيه أن يؤلف بين تراكيبه وشخصه، فتنتطق من تحت عبائه الكيانات قادمة من كهوف التاريخ، وتناقضات الحاضر، متجهة إلى صنع الولايف الأعلى فى توليد الآلهة فى طريقها الى الاله الواحد الأحد، وليس هذا مجال أمثله أو تفاصيل، إلا أنى أعلن فى هذا الإستطراد أن هذا هو المدخل الأصعب لاستيعاب الشعر واستقبال رسالاته المكثفة، ولكن الذى يهمنا هنا هو دلالة هذا التعدد والتناقض والتكثيف والقدرة على التحول (مثلا) "... التى تجعل من حضور مهيار ذاته نفيا وأثباتا، خلقا وتدميرا فى نفس الوقت" وهذا التعدد الذى يشمل الذوات والطبيعة وما بعدها فى حركه ذاتيه نحو إعادة التنظيم وتنظيم اللقاءات فى

الكيان المتخلق الجديد... يجدها كل قارئ يقظ شجاع في كل شعر حقيقي، (ومثال عابر من نفس المقال- خشية الإستطراد- يقول: " فينيق مت، فينيق ولتبدأ بك الخرائق، لتبدأ الشقائق" أو "مزدوج أنا، مثلث"... (نفس الشاعر في نفس المقال... الخ).

هنا مجرد بنا أن نتوقف لنحل هذا التناقض الظاهر:

- 1- الانسان متعدد في كيان ظاهري واحد.
- 2- التعدد خطر وقد يفتح أبواب السلبية والتناثر.
- 3- الانسان مستمر، ويتقدم رغم (1)، (2)

ويبدو أن الخل إنما يكمن في إعادته النظر في بعد الزمن، فالإنسان متعدد تركيبا في بعد زمني ممتد، وليس في نفس اللحظة (قد تصل الى جزء من جزء من الثانية) في نفس المجال الشعوري.

وبعبارة أخرى: إن التعدد هو حقيقة تركيبية فاعلة، والتفرد هو ظاهر وحصيلة محددة بوقت بذاته.

ومن هذا المنطلق نعود الى شئ من التجزيئ الذي رفضناه من حيث المبدأ في بداية المقال، ولكننا نرجع فنقول أنه ليس تجزيئا، بل تعددا وشتان بين التعبيرين، والمنطلقين.

ويصبح التصوير المرحلي في هذه المنطقة من النقاش كالتالي:

" أنا .. هو ظاهري الآن، وكل ما ترتب على ما هو هذا ... هو مني" وفي نفس الوقف :

"أنا - أيضا - هو ما يمكن أن أكونه بعد لحظة أو بعد دهر من واقع ما هو " أنا- نحن " في حركه دائبه متعددة الأبعاد"

وهذا التحديد من خلال بعد الزمن هو الذي يعطي الذات تحديدا مطلقا لكونها كيانا واحدا مفردا فاعلا شاعرا، وفي نفس الوقت فلا تحديد في بعد الحركة والمجال متسع لكل احتمال.

وإنما ينشأ الخل وتدخل السلبية حين تصبح " اللحظة " هي " ذات اللحظة " و هي .. هي " غيرها " في نفس الوقت.

وقد يحدث في الظروف سالفة الذكر ( الجنون والحلم والشعر) أن يحتفى بعد الزمن أو تتضاءل فاعليته أو تتنجى مؤقتا، فيظهر التعدد على السطح في آن واحد، اما في الجنون (الفصام خاصة) فتشل الشخص المتعددة بعضها بعضا وتتبادل احيانا في تساو عاجز عن ترجيح كفة أي منها فيكون ناتج العقل صفرا حيث لا يصل الى قرار أبدا (أو يصل الى القرار ونقيضه في عجز ساكن - قارن بعد ذلك حركة النقائض-).

أما في الحلم فإن إعادة التنظيم تبدو عشوائية في ظاهرها ولكنها حركة تظهر الكيانات المتعددة التي قلقلت (بعد اختفاء اللحم الشعوري) في علاقات جديدة تصنع الحلم،

(مع التنبيه أن "ظاهرة" الحلم هي غير الحلم الحكى بعد أن تناولته الذاكرة، الأمر الذى يعرض مادته إلى إعادة التنظيم).

أما في الشعر، فالتعتة تتم في إطار شعورى حين تخف قبضة الوحدة الظاهرة الساكنة عن المحتوى المتعدد، فتتحرك الصور في تقابل مثير متبادل، وتصاغ في الشكل الفني الممكن (ولا يهم ان يخطئ صاحبها الصياغة او يصيب حسب تمكنه من أدواته)، ويصبح التعدد في مجال الشعور في هذه الخيرة هو الثروة التي تميز بها الشعر عن غيره من لغات التواصل أو التعبير، وهو تعدد قد يأخذ شكل إعادة التنظيم، ولكن الأصالة فيه تبدأ في مرحلة فعل التوليف بين التناقضات، فتكتسب اللغة دلالات جديدة من واقع الكيان المتكون الجديد، وتصاغ الخيرة الإبداعية كمثال لكيفية صياغة الحياة في نموها الواف الصعب.

ننتقل بعد ذلك إلى ضرورة هذا التعدد ومعناه ودوره في مسيرة النمو البشرى:

فاذا كانت هذه الخيرات التي اوردتها هي عينات صور التعدد في الكيان البشرى، فما هي الدلالة، وما هو المغزي؟

يبدو أن الانسان اذ يولد يحمل معه تاريخ الحياة والأحياء في تكاتف منظم وليس في تلاحم نهائي، وتصبح مسيرته الحياتية هي محاولة تلك الكيانات التي ولد بها، ومن خلال عمليتي " ملء وبسط" متصلتين تتحرك هذه الكيانات في علاقات معينة لا مجال هنا لتفصيلها ولكنها تتراوح بين التناوب، والتعاون، والسيطرة، والصراع، والإستبعاد، والإزاحة، والتلوث، والمواجهة وأخيرا التوليف (الولاف)، ويتم كل ذلك من خلال النشاطات الحياتية المتتابعة بما في ذلك التناوب بين النوم واليقظة، وبما في ذلك فعل الحلم وابداع الخلق، والذي يهمننا في هذا البحث المتقدم هو العلاقة الأخيرة حين يعايش الإنسان تعدده ويعيه وعيا نسبيا فيما يسمى أزمت النمو، دون أن يتأثر أو تعجز الكيانات بعضها بعضا كما في حالة المرض وفي الفصام خاصة، وهذه المعاشة هي التي يمكن أن يكون توضيحها هو الهدف من تقديم هذا البحث للإنسان غير المتخصص، لعله باستيعابها يسمح لنفسه في أوقات خاصة بهذا التعدد الواعي مرحليا، وبالتالي يمتثل تناقضه ويتيح لنفسه فرصة توليف أعلى من المتناقضات المواجهة بعضها بعضا، وقد يكون في إعلان طبيعتنا البشرية متعددة الشخص ما يشجعنا - في مراحل بذاتها - إلى تقبل التناقض في الآخرين باعتبارهم حدثا طبيعيا هاما قد يحمل في ظروف خاصة (أهمها التقبل والوقت الكافي) إمكانية دفع عجلة النمو في مسارها الطبيعي. وبغض النظر عن تفاصيل علاقات هذه الكيانات ببعضها داخل الوحدة البشرية، الأمر الذى قد نفرده له بحثا خاصا (أو يجده القاري، في موضع آخر فان تأثير هذا المفهوم على التواجد البشرى وعلى صورة الذات بل وربما على المسار الحضارى لا يمكن إغفاله سلبا وإيجابا، وقد حذرنا في بداية هذا المقال من بعض السلبيات وجدير بنا ان نذكر هنا ما نراه على الجانب الآخر:

1- إن شعورى بالتعدد داخلى يقلل من غرور "الأنا"، فمن أنا إذا كنت لست الا "هم" (قادمين من أجيال سحيقة وأحياء منقرضة)؟ ولست إلا "نحن" (مبصومين داخلى نتيجة إحتكاكى معهم ومواجهتى لهم وتناقضى فى مقابلهم وعدوانى عليهم ودفاعى عن نفسى من إيدائهم...)؟ فإذا كان الأمر كذلك، وكنا نتحدث عن الإيجابيات، فلا بد أن أكون "أنا" هو محاولة الولاى المستمر لأصنع الوحدة المؤقتة من جماع هذا التراكم الحى، فى طريقى إلى أن أصبح وحدة كيانية فى كل اكبر، وحسب قدرة الفرد منا على إستيعاب هذا الموقف لحظة بلحظة ومرحله بمرحلة، يكون مساره، وتكون آثار هذا المفهوم سلبا وإيجابا

2- فإذا كنت أنا لست الا "هم.. ونحن" فى طريقى الى وحدتى البشرية التى هى إحدى كيانات وجود اكبر، فما هو الطريق إلى مزيد من العداوة والتكبر والحكم الفوقى والصراع؟ لقد فهمت أحيانا قول المسيح أنه من كان منكم بلا خطيئة فليرمها بجمجر على أنه من كان منكم "ليس هو هى تلك الزانية" وذلك بالنظر من بعد معين، أو "من كان منكم لا يجوبها داخله" وكأنه يذكرنا بما هو نحن تفويتنا علينا معركة زائفه تنسينا حقيقة رحلتنا الأصعب، والأخلاق المسيحية بهذه الصورة حين تؤكد على أن نحب أعداءنا لا تصبح، من ذلك البعد الأعمق، أخلاقا مثالية نظرية أو ضد الطبيعة البشرية، بل لعلها تذكرنا بتواضع شديد أن نحب أنفسنا إذ نحب أعداءنا، وأن نحب أعداءنا إذ هم داخلنا (أصلا خارجنا ثم داخلنا- خارجنا... الخ) ولا يمكن أن تكون الصورة هى صورة الإستسلام الخائب من موقع الطفولة المسطحة، ولا شك أن هذا الموقف لا يستطيع أن يقفه إلا شخص شديد النضج عميق الوعي، وقليل ما هم، والا فان الخيل النفسية سوف تأخذ مجراها الى أبعد مدى ويصبح الكبت، وتكوين رد الفعل Reaction Formation هو التفسير الاقرب للإضطراب الى إخفاء العداوة وإظهار محبة معطلة وسخيفة تجاه العدو، والفرق دقيق ويقع عادة خارج مجال الرؤية العادية والأحكام الأخلاقية، ولعل مما يساعدنا على تحديده هو التيقن من تشريف العدو داخلى حقيقة وفعلا، فما هو الا أنا بشكل أو بآخر، حتى لو قتلته فى الخارج فمعركتى لا تنتهى فى الداخل بل لعلها تزيد، لأن هذا "البصم" المشار اليه إنما يزيد ويسهل انطباعه لحظة القتل بالذات (بدأت هذه المشاهدة من تتبع بعض مرضى الفصامين وتخبرهم إلى إتجاه ما هو والدهم عقب لحظة الوفاة مباشرة وحضورهم إياها، بما كان يمثله الوالد المتوفى من تما سك وعدوان وتضاد وتناقض وبما كانوا يحملونه من رغبة فى التخلص من الوالد المعتدى)، ولعل فى ذلك ما يفسر أن "الروح" تحوم حول قاتلها (انظرما يأتى بعد)، اذا فالمسألة ليست مسألة تميع المواقف الإنسانية من خلال تصور أن "كله مثل كله" فينتهى الخير والشر، ولكنها مواجهة بحقيقة (وخدعة) التمييز البشرى بين البطل

والضحية، وبين القاتل والمقتول، وبين الشرير والفرار... الخ. والصعوبة التي أجدها في هذا المقام لتحديد الفرق بين "ضرورة الديالكتيك" و"مسخ التسوية" سوف ألقاها في كل حين وسأحاول أن أحذر منها دائما أبدا، لأن المسألة ممارسة حياتية وليست ألفاظا وتبريرات وتعريف المفاهيم ومناقشات ذهنية.

3- وما دمت " أنا " أحوى الأبيض والأسود معا، أفلا يساعدني هذا أن أتحمّلها مجوار بعضهما بخارجي إذا تيقنت أن خارجي، هو أصل داخلي، وأن داخلي هو الممثل الطبيعي لما هو بالخارج " هل أستطيع أن " أتحمّل التناقض" في الخارج دون تصنيف الناس ( أو بتعبير أدق: المسارعة الى تصنيف الناس) إلى فريقيين على طرفي قطبي التعارض، ورغم أن هذه النقطة تبدو قريبة من سابقتها، إلا ان الإيضاح هنا يرتبط بموقف جديد: ليس فيه دعوة الى حب العدو بالمعنى الأعمق وإنما الى تحمل التناقض الظاهر في الآخرين وفي العالم الخارجي لأنه هو هو "أنا" وبغير هذا التحمل سنشطر العالم خارجنا تعسفا وقهرا إلى شطائر نتعامل معها، فتشطرنا بدورها وتلغى بقاينا التي قد تكون أهم ما يدفعا الى إستكمال المسيرة، وتحمل التناقض يشمل ضمنا تحمل الغموض Tolerance of ambiguity لأن التناقض قد يستبعد منطقا، أو حتى في مرحلة الإدراك وقبل المنطق والتفكير، وحين يستبعد تواجد " التناقض معا" يغمض الموقف لا محالة، فأما أن نرفضه جميعه تأكيدا لعجزنا، وهامية لقشرتنا المسطحة، وإما أن نضع احتمالات متفرعة ومتنوعة تشمل كل شيء، بما في ذلك التناقض، والخلف، والتذبذب، والتراجع وغيرها مجتمعين في كل لا تختل وحدته باجتماعهم وإنما تتأكد دافعيته وحيويته في المسيرة المتصلة من خلال هذا التجمع ظاهر التضارب.

4- وعلى ذكر المسيرة، فإن هذا المفهوم (تعدد الكيانات في الوحدة البشرية) هو القوة الدافعة نحو إستمرار النمو بمعناه الديالكتيكي الحقيقي، ومالم تستقر هذه الكيانات في معادلة هامة من "التسوية" أو "التلوث" اللذين يقلبان الوجود البشري الى نوع من الإستاتيكية المجمدة، أو التكرار المغلق، مالم يحدث هذا فإن القوى الدافعة الناتجة من هذا التعدد النشط هي الدافع الحقيقي للنمو (ويمكن تفسير ما يسمى بالغرائز والطاقة تفسيرا أعمق مرتبطا بمفهوم الكثرة الحيوية المكونة للوجود البشري)، ثم أن حكاية الوحدة التي نقيضها داخلها، وأن السلب يخرج من جوف الإيجاب (هيجل) هي التعبير الظاهري لحقيقة تناقض المحتوى المكون للوحدة بشكلها الظاهري، رغم أن هذا الشكل الظاهر هو الذي يميز هذه الوحدة بالذات، وهو الذي يتعامل - في لحظة بذاتها- مع الناس والواقع وهو المسئول وهو المختار.. الخ، ولكنه أيضا- في نفس الوقت- ليس إلا مايجويه وما هو دلالة عليه.

وفي عملية النمو الديالكتيكي المستمر الناتج عن هذه الكثرة المتواجدة "معا" في الكيان البشري، يخرج الداخل

الى حيز الشعور وذلك في مواقف النمو الحرجة (تسمى أحيانا أزمات النمو) Growth crisis ليصبح أكثر وأكثر في متناول عملية التوليف المسنولة عن تكوين الوحدة الأعلى، ونفس هذا الأمر انما يحدث بجرعات أخف، وبعيدا عن دائرة الوعي من خلال الحلم بوجه خاص.

5- ومع كل هذا الوعي بحقيقة هذا المفهوم وآثاره لابد أن يعاد النظر في المرض النفسي وخاصة الذهان، فلا يصبح ظهور الكثرة (الطبيعية) التي تتكون منها الوحدة البشرية هو في ذاته مرضا يستأهل إسما ولافتة، بل يصبح إعلانا لحقيقة يجب أغلبنا أن يتجاهلها لأسباب مرحلية، وربما أن الأوان أن نعتبر هذا التجاهل خدعة لم يعد لها مبرر كاف، وهذه الحقيقة التي يعلنها المرضى (الذهان) النشط خاصة خليقة بأن تتناول في إطار إتاحة الفرصة لهذه الكثرة المعرأة أن يعاد تنظيمها من خلال احتمال التوليف الأعلى، حتي لا يصبح الربع منها (من الكثرة) دافعا للقضاء على أغلب مكوناتها فوراً والى الأبد بالقهر الكيميائي والتسطيح التمييزي سواء بسواء.

وأوقف نفسي قسرا حتى لا أستطرد في سرد عينات تفصيلية في الأحوال المرضية

وليسمح لي القارئ و أنا اختتم تقديم هذا المفهوم أن أدعو خياله للمشاركة المتأنية في تفكير غير مسبوق بحكم نهائي، ونحن نحاول أن نجيب عن تساؤلات خطرت في بالي إنطلاقا من مفهوم التعدد والكثرة الذي قدمته في هذا البحث:

1- هل يمكن أن تكون الأرواح والأشباح وربما الشياطين وما إليها) ليست سوى كيانات من صلب كياناتنا المتعددة التي تسقط الى خارج عالمنا فنستقبلها (فكرا أو تجسيدا) من جديد؟ وهل يمكن أن تكون الأرواح ( بما في ذلك تحضيرها وتصويرها ) ليست سوى كيانات مدمجة في الوجود البشري الحي؟ (وما الكيان إلا ترتيب فيزيوكيميائي خاص)، أي أن الجسد الحي هو الشاشة الحاملة لكل هذه التنظيمات المتبقية من أجيال سابقة، تم بصمها من المواجهه والتفاعل خلال حياتنا أو تم نقلها بالوراثة؟ وفي هذه الحالة يكون من يسمى " الوسيط" هو كيان حيوي بشري من قادر على التمتع وإعادة الإحتواء... الخ... الخ؟

ولعل من أهم هذه الآثار التي يفجرها هذا الفرض ما قيل عن تصوير الأرواح ( مارلين مونرو بجوار آرثر ميلر بعد وفاتها مثلا) اذ يصبح التفسير بسيطا ما دام التركيب المدمج هو تركيب فيزيوكيميائي قابل للتمتع. وبالتالي مستعد للتأثير على فيلم حساس، وبالتالي يصبح الجسد الحي صاحب الاتصال والاحتكاك بالشخص الراحل (أو حتى قبل أن يرحل حسب هذا الفرض) هو المجال الحاوي لهذا التنظيم الممثل للشخص المعني.

2- هل يمكن أن نربط بين سعى الإنسان لوجه الله في عمليه نموه المستمرة، وبين إقترابه من توحيد كياناته المتعددة في



كيان واحد شيئاً فشيئاً من خلال عملية التوليف بين كياناته المتناقضة، فنفهم بعمق أكثر بعض مفاهيم التوحيد الصوفييه وبعض مفاهيم التوحيد الالهي، بل وبعض ما أسماه ماسلو " الوجود شبه الالهي " God like existence الذى يصغ خبرات تحقيق الذات؟

أو هل يمكن مراجعة " التثليث " المسيحى " فى أقنوم واحد" كممثل لمستوى ما من "الكثرة فى الوحدة"؟

ومرة أخرى أوقف نفسى قسراً عن التمادى فى عرض التساؤلات ليكمل القارئ بما وهب من شجاعة التفكير تساؤلاته الخاصة ولا يسارع بالاطمئنان الى إجاباته الخاصة ( ولا إلى إجاباتى بداهة) .

### التعقيب:

أظن يا محمد يمكن أن تلاحظ أن ما جاء فى هذا المقال يظهر كيف كان حذرى الشديد حين كنت فى سنك، حذرى من نفس ما تحفظت عليه ونبهت إليه،

أرجو ألا يكون ذلك سبباً فى توقفك عن التساؤل، والإضافة، حتى العراق، ما رأيت إلى ذلك سبيلاً.

\*\*\*

### المقال الثالث:

مجلة الإنسان والتطور ، عدد يناير 1982

### حول طبيعة المعرفة

### (المواجهة بين الفطرة والتعلم)

د . محمد يحيى الرخاوى

يغامر كاتب هذا المقال بالاقتراب من طبيعة المعرفة بتصور نسق مسبق قابل للجدل والتطور، ويسهم فى قضية المعرفة باجتهاد متواضع، وهو يشعر بمخاطرها الى حد الجنون، وبروعتها الى حد النبوة .

اذ كان الانسان يولد وفى داخله قوة هائلة ترغب فى المعرفة، فهذه محاولة للنظر فى كيفية حصول هذه المعرفة من خلال تطور ما سيطلق عليه فى هذا المقال اسم (المنظومة المعرفية) لتدل على ذلك النظام المتكامل الذى تنظم فيه معارف الفرد، وبدون هذا النظام على أية حال كان(سلبياً أو إيجابياً، مختبئاً كان الفرد او مواجهها)، فان الفرد يعانى ما قد نطلق عليه قلقاً أو توتراً أو ضياعاً أو ضاباً كما يحلو لكل أن يسمى هذه المعاناة التى تنتج عن تنافر أو تحبط تلك المعارف المفردة بعضها ببعض اذ هى لا تنتظم داخل اطار يجعل ما بينها تكاملاً لا تنافراً، تفاعلاً لا تحبطاً .

وهذا المنظور يفترض ولادة الانسان وبه (منظومة فطرية)، تلك التى ينتظم فيها كيانه قبل أن يحصل من الخارج على أية معرفة جديدة، وفى لحظة حصوله على أول معرفة جديدة يبدأ الفرد فى تخطى تلك المنظومة الفطرية، فإى معرفة جديدة، هى

بالضرورة لا تنتظم فيها (طالما هي جديدة)، وتزداد المعارف والمعلومات الواردة من الخارج، عندئذ قد تتدخل المراجع الاجتماعية لتحكم أولا كم المعارف الواردة، ثم لتجبر على حركة هذه المعارف فتتجمد في ظل منظومات الأفراد المرجعيين الخاصة، فتتكون منظومة مأخوذة من تلك المراجع سنطلق عليها هنا اسم (المنظومة المكتسبة)، وهذه تبقى كما هي بلا تحول أو اضافة أو تطور، وغالبا ما تكون هذه المنظومة علامة تحذار عن المنظومة الفطرية والغاء لامكانات المعرفة المصاحبة لها (أو الكامنة فيها)، وهي التحذار لا تطور لأنها تجمد المنظومة الفطرية وتشلها، مع ما قد يوجد في هذه المنظومة من استعدادات معرفية أو تطويرية، وهذا هو حال معظم الناس للأسف.

وعادة اذا ما تحطى الفرد المنظومة الفطرية باكتسابه اى معرفة جديدة، فانه لا يجد سبيلا للرجوع اليها حتى يبدأ من جديد، حيث أن المعارف الجديدة موجودة بالرغم من كل شيء، وهي لا تدخل في بناء هذه المنظومة، حيث أنه اذا ما تكونت المنظومة المكتسبة المتجمدة، فانه لا سبيل الى التطور بعد ذلك الا بتفكيكها لاعادة فتح أبواب الاستقبال، وهذا بالطبع لا يحدث الا مع الندرة، ولكن اذا ما حدث فهنا يمكن الخطر كل الخطر (خطر الجنون مثلا) .

والاحتمال البديل عندما يتخطى الفرد تلك المنظومة الفطرية اذ تعجز عن احتواء المعلومات أو المعارف الجديدة الواردة، هو أن تظل المعلومات تتخبط ولا تعرف لها اطارا أو نظاما تنتمي اليه، وهنا تبرز مشكلة الضياع والتوتر أو القلق (أو غيرها من المسميات) التي يحس بها الفرد، فالمعلومات ناقصة وغير مفسرة، أو هي مفردة لا تجرد قانونا أو اطارا ينظمها لتنتج كلا أكبر من مجموع الأجزاء، ولست أرى حلا لهذا سوى الاستمرار في البحث سعيا الى منظومة تنتظم فيها هذه المعارف، فاذا ما وعى الفرد هذا التخبط (أو التناثر) بين تلك المعارف، عاش فيما يسمى بحيرة التساؤل أو جهاد المعرفة، وقد تبلغ هذه الحيرة من الشدة ما يؤدي بصاحبها الى الاضطراب الذي لن يكون مرضيا بالضرورة، اذ هو أخف بكثير من حالة تفكك المنظومة المكتسبة.

وقد يكون نتيجة هذه الحيرة، اذا طالت بلا حل، هو الهروب الى منظومة مكتسبة مبطنة بالمشاركة مع الغالبية، ولكن هذه المنظومة في الغالب ما تكون أقل استقرار مما لو كانت قد تكونت منذ البداية .

أما الوجه الايجابي المتماسك الذى قد ينتج عن تلك الحيرة فهو ذلك النهم المعرفى الذى قد يغمر الفرد فيفتح أبوابه المعرفية، وهذا النهم وظيفته أن يزيد عدد مفردات المعرفة الجديدة، تلك التى تمثل عناصر بنية المنظومة الجديدة .

ويظل الحال هكذا حتى يكتشف الفرد تلك المنظومة الجديدة التى تختلف مع مجرد الاكتساب ولا تكتفى بمجرد الفطرة، وفي

تصورى أنه يكتشفها موجودة بداخله وقد تم بناؤها فعلا، فهو لا يحاول (متعجلا أتمام البناء قبل استيفاء عناصره) أن يصنعها أو يحيكها مستنبطاً قوانينا عقلية منطقية مهما كان صدقها فهو صدق جزئى إذا لا ينتمى انتماء أساسيا للنظام الذى يحوى الكل ويرتب التفاعل بين أجزائه، وقد يكون من نتائج عجزه عن الوصول الى تلك القوانين المنطقية الجزئية أن يضطر الى التزييف بالتأويل والبعد عن الواقع كما قد يتضح فيما بعد، المهم أن هذه المنظومة (التي يكتشف تكوينها) من الممكن تسميتها هنا (المنظومة التطورية).

وتظل هذه المنظومة التطورية مفسرة لمعارف الفرد، ولكن عملية اكتساب المعارف أو المعلومات لا تتوقف، وهنا قد يجد الفرد أن المعلومة الجديدة أو التساؤل الجديد له مكانه المقبول فى المنظومة التطورية الجديدة، سواء أكان هذا بتقبل بناء المنظومة للمعلومة، أو برفضها بمعنى أن المنظومة استطاعت ان تلغى القضية إيجابيا، أو باكتشاف وجود بديل لها بالمنظومة وان لم يكتشفه الفرد الا عندما أثبتت هذه القضية أن بغير ذلك من اشكال حل القضايا أو قبول المعلومات حسب نوع هذه القضية أو المعلومة أو التساؤل .

ولكن تبرز هنا قضية غاية فى الأهمية، وهى طريقة قبول هذه المعلومة فى المنظومة، والقضية تتضح عندما نعلم ان الفرد لا يبذل جهدا ذهنيا تفكيريا يحاول به ادخال هذه المعلومة فى المنظومة، اذ لو فعل(وغالبا ما يكون هذا بطرق ملتوية) لكان هذا — بشكل ما — تجميذا للمنظومة الحاضرة (الجاهزة) لا تغرى بالمخاطرة، فهى كيان قائم (قام) وانتهى الأمر، ولكن لو ان المعلومات أو المفردة المعرفية الجديدة كانت قد وجدت مكانها القائم فى هذه المنظومة ، والذى لم يكن ليجتاج الا أن يعى الفرد أنه موجود، لما واجه الفرد مشكلة التجمد أو اضطر للهرب، فالمنظومة الموجودة لا تزوال قادرة فعلا على الاستيعاب، فإخطأ يكمن فى رفض المعارف أو تأويلها، او تحويل المنظومة القائمة وزيادة مفردات المعرفة وتطويرها ثم إعادة انتظام المعلومات فى بناء جديد سيكون فيما بعد المنظومة التطورية الأرقى .

والمعلومات لا تحور فقط لتدخل فى اطار المنظومة، بل ان المعلومة تستخدم كذلك لتأكيد صحة المنظومة وتقوية تجمدها (فلقد استطاعت أن تحتوى المعلومة الجديدة ولو كانت محورة) وهذا يرر للفرد عملية التحويل(فيجعله يغض النظر عنها وكأنها لم تحدث)، ويظهر هذا الشكل عند معظم أولئك الذين مع أهل العلم مع أهل السياسة والفكر القائم (وليس التفكير)، وان كان بعضهم لم يصل حتى لمرحلة اكتشاف المنظومة التي ثبت عليها، بل تلقاها وثبت عليها، مثله كمثل من تلقى منظومته الأولية من مراجعه الاجتماعية (الأسرية وما حولها) فهو لم يختلف الا فى اتساع النطاق، فبدلا من المراجع الاجتماعية الضيقة النطاق والافق، اتخذ مراجعا أخرى، دينية كانت أو سياسية أو حتى تاريخية أو غيرها.

أذن فالمقصود بأن المعلومة تجد مكانها في المنظومة، هو أنه إذا كانت المنظومة بناء متكاملًا قائما بذاته، فقد لا يرى الفرد كل مكوناته، ولكنه عندما يواجه بوجود هذه البنية (المفردة المعرفية الجديدة) يجدها قائمة في بناء المنظومة، بل أنها قد تكمل له بعض جوانب البناء التي كانت خافية، نجد هذا في مقابل تحويل وتأويل المفردة المعرفية بالبعد عن الواقع لتدخل في البناء القائم فعلا .

وقد يحدث أيضا أن يستبعد الفرد المفردات الجديدة إذا لم يجد لها مكانا في المنظومة المعرفية، فهو يلغى المعلومة من أساسها (وهذا غير تحويلها أو تأويلها السابق ذكره)، وأن لم يبلغها فهو يستبعدا (وهذا فرض أفضل أو أكثر واقعية) بحجة أن لا علاقة له بها مثلا، وأصحاب هذا الموقف هم من غير المتحمسين من المنتمين لمنظومة ارتضوها واكتفوا بها، كما أن ذلك هو موقف أصحاب المنظومة الأولية المكتسبة دون تحويل .

كما أن هناك البعض ممن لم يغلق منافذ الاستقبال والمعرفة، وأن كان لا يبحث عنها تنازلا عن القضية بأكملها بسهولة ويسر، فإن تكونت بعض الارتباطات المعرفية الجزئية فأهلها، وأن لم تتكون فلا داعي، وما عرف قد عرف وما لم يعرف فليس بهم أحدا، وكان الله بالأسرار عليما .

لكن ماذا يحدث للمنظومة القائمة لو أن الفرد المستمر الجاهد (وعقوا للصفات التي فقدت معناها — أصحابها —) لم يجد للمعلومة الجديدة مكانا بها، إذا واجه هذه الحقيقة فهو سيعلم حتما أنه قد تخطى مرحلة المنظومة الحالية، ولكن المفردات تظل تتكاثر خارج المنظومة السابقة وقد أتصور أن بقاء المنظومة السابقة رغم تخطى الفرد لها ضروري ومساعد هام على الاستمرار، فوجودها يجعل هناك أساسا، ولو منهتكا، يستند إليه الفرد، وقد تتكون في هذه المرحلة منظومات مرحلية مساعدا، وهي أرقى بالضرورة، وهي مرحلية إذ هي جزئية، بمعنى أنها احتوت كل المفردات، (وهل يستطيع الوصول لتلك المنظومة الجامعة الانبي، ومن المفترض بالطبع أن تكون المفردات هائلة عند مثل هذا الشخص صاحب تلك الصفات — اللهم احفظنا—)، وهذه المنظومة المرحلية لها نفس وظيفة المنظومة السابقة، وهي الاعانة على التماسك فالاستمرار، وان كانت أكثر حداثة وأقل تهتكا، وبالتالي فهي أكثر فعالية، بل ان تكونها في حد ذاته مشجع ومطمئن كبير على أن العجلة لم تتوقف، وهذا عامل قد يكون له أثره الكبير في التخفيف من وطأة اليأس.

والآن، هل من الممكن أن نرى من خلال هذه النظرة ما يمكن أن نعممه ليوضح شيئا عن قفزات ومراحل نمو الأشخاص من منظور نفسي؟

— أو هل من الممكن أن ننتبه الى امكان تدخل مفهوم المنظومة العامة (المشتركة) تدخل جبارا (وقد يكون عاملا رئيسيا) في قيام الحضارة؟



• إن الوعي النسبي بتفعيل قوانين حركية الوجود بقانونها الحيوى والاستعداد لتلقيها، فالإسهام في حفزها إلى ما تعد به، هو الإبداع في مختلف تجلياته، بما في ذلك إبداع الذات على مسار النمو.

• إن انفصال القشرة بعيدا عن حركية قوانين الوجود لدرجة إخفائها، وهو آثارها (حتى الفسيولوجية) أولا بأول هو الذى يجعل القشرة تبدو نقيض الفطرة وكأنها حلت محلها تماما.

2007-12-9

### المقتطف الثانی: من یومیة "تعدد الكیانات وحركية الإبداع"

التعدد هو حركة كیانات أكثر منه كیانات في حركة!! بآه!! لم أقصد، ولكننى سوف أترك هذا التعبير كما خرج منى هكذا للنقاش، مادام ثم نقاش،

من هنا یأتى مدخلنا إلى "حركية الإبداع" ليس بصفته موهبة نادرة، أو عبقرية متميزة أو ناتج فذ، بل بصفته أرقى أنواع التشكيل المتجدد لمستويات متعددة من الوعي بما تحتويه ويحتويها من كیانات مرنة تسمح بهذا التشكيل في ناتج أصیل جدید، إن هذا المدخل هو الذى یمكن أن یهدینا إلى الإحاطة بالمعنى الحركى للتعدد من حيث المبدأ.

#### تساؤلات ختامية:

- هل تعقدت المسألة بذلك أم أنها مثلت متحديا تستدعى النظر وإعادة النظر؟

- هل أصبحت الأمور ثقيلة على القارئ العادى، أم أن كون أغلبها نشر في مجلة دورية منذ ربع قرن یرر تقديمها بما هی مرة أخرى للقارئ العادى؟

- هل مغامرتنا بنشر هذا الملف سوف یؤدى بنا إلى مزيد من التعمق في التخصص، أم أنها رؤية عامة مطروحة على كل الناس، تستأهل النظر والمشاركة؟

وتساؤلات أخرى كثيرة

- بدأت هذه الرؤیة، ثم هذه النظرية لما بدأ أريك بیرن یعتقد في חדسة الإكلینیكى وقدرته على الوصول إلى مهنة الجندى القادم للكشف (وكان بیرن أيامها یخدم في الجيش) دون أن یسألها علیها، وثبت لديه أن هذه القدرة أعلى من مجرد الصدفة، وأنها تحتاج إلى لحظة إستعداد خاص من شخص بذاته وأنه یمكن تنميتها، ثم تسلسلت الرؤى وتعاقب التنظیر

- والتصوف، إلا أنى لم أرده هنا لأنه خبرة معقدة تجمع هذه الأطراف جميعا، وهى غیر قابلة للدراسة بشكل مباشر بحيث لا یفید الإستشهاد بها هنا.

- أقنعة الشعر المعاصر: مهبّار الدمشقى ( جابر عصفور) مجلة فصول ( يوليو 1981) السنة الأولى المجلد الأول - العدد الرابع.

Rakhawy, Y. (1981) : selected Lectures in psychiatry Dar EI Chad publishers Cairo

- يمكن للقارئ أن يرجع إلى دراسة في علم السيكيوباثولوجي للكاتب، صفحات 26، 32، 37، 52، 124، 224، 569، 740، كما يمكن الرجوع لمراجع هذا المقال في موقعه بالموقع.
- طالب في السنة الثالثة كلية الآداب - قسم علم نفس - جامعة القاهرة.

ديسمبر 2007: أسبوع 2



---

إصدارات شبكة العلوم النفسية العربية

جميع الحقوق محفوظة للمؤلف 2007



## أ. د. يحيى الرخاوي

- أستاذ الطب النفسي: كلية الطب، جامعة القاهرة
- كبير مستشاري دار المقطم للصحة النفسية لشخصيات
- رئيس مجلس إدارة جمعية الطب النفسي التطوري والعمل الجماعي



### الأبحاث النفسية

- عيد الأبحاث وأوراق بالإنجليزية و عيد الفروض والنظريات والمداخلات بالعربية إضافة إلى عديد أبحاث الدكتوراه والماستير التي قام بها واشرف عليها ومشاركته عديد الندوات والمؤتمرات العلمية والعالمية

### المؤلفات

- حيرة طبيب نفسي - المشي على الصراط ( ج1 الواقعة. ج2 مدرسة العراة) - مقدمة في العلاج النفسي الجمعي - دراسة في علم السيكيوباتولوجي (شرح : سر اللعبة) العمل المحوري الذي يمثل تنظيره للأمراض النفسية والسيكيوباتولوجيا - أغوار النفس - حكمة المجانين - النظرية التطورية الإيقاعية وأساسيات من علم النفس (تشمّل الخطوط العامة للنظرية النفسية البيولوجية للمؤلف) - قراءات في نجيب محفوظ - مثل.. وموال - مراجعات في لغات المعرفة - مواقف النفري بين التفسير والاستلهام- ترحلات يجي الرخاوي (ثلاثة أجزاء) - مبادئ الأمراض النفسية - علم النفس في الممارسة الطبية - علم النفس تحت المجره - ( ألف باء. الطب النفسي - حياتنا و الطب النفسي - حيرة طبيب نفسي - عندما يتعري الإنسان - دليل الطالب الذكي في علم النفس والطب النفسي: 3 مجلدات - أفكار وأسماح حول القصر العيني - البيت الزجاجي والثعبان. (شعر) - اللغة العربية والعلوم النفسية الحديثة - المفاهيم الأساسية للطب النفسي- الطب النفسي للممارس - قراءات في نجيب محفوظ- مثل.. وموال قراءة في النفس الإنسانية - رباعيات ورباعيات - هيا بنا نلعب يا جدي سويا مثل أمس- تبادال الأفتنة - أصداء الأصداء

### الانتماء إلى الجمعيات النفسية

- عضو الجمعية المصرية للصحة النفسية
- عضو مؤسس لكلية الملكية للأطباء النفسيين
- رئيس التحرير المشارك المجلة المصرية للطب النفسي.
- رئيس تحرير مجلة الإنسان والتطور - مستشار النشر بالهيئة العامة للكتاب
- مسئول التحرير المشارك للمجلة العربية للطب النفسي

## إصدارات شبكة العلوم النفسية العربية

جميع الحقوق محفوظة للمؤلف 2007

